قصص من العالم

مختارات من روائع القصة العالمية

تأليف

نخبة من الكتاب العالميين

الكتاب: قصص من العالم .. مختارات من روائع القصة العالمية

الكاتب: نخبة من الكتاب العالميين

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

نخبة من الكتاب العالميين

قصص من العالم .. مختارات من روائع القصة العالمية

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٠٩٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦٠٧ / ٢٠٢٠

قصص من العالم

مختارات من روائع القصة العالمية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

القصة أوسع ميادين الأدب وأروعها وأغزرها مادة، فهي مرآة للبشر، تنعكس فيها تجاربهم، وأحاسيسهم، ومشاكلهم، وأسلوب حياتهم، وأحلامهم، بل أن بعض الكتاب يتخذون منها اليوم أداة لبسط مذاهبهم في الاجتماع والفلسفة وعلم النفس. وفنون القصة كثيرة، وأنواعها متعددة، فمنها الأساطير، والملاحم، والمسرحيات، والقصة الطويلة والقصة القصيرة، ثم أن القصتين الطويلة والقصيرة تتقسمان عدة أقسام، بعضها يتناول حادثاً من حوادث التاريخ أو بطلاً من أبطاله، وبعضها يتناول الحب، أو الفكاهة، أو المغامرة على اختلاف ضروبها؛ وبعضها يعالج الجريمة، والمسائل العلمية، والتحليل النفسي، وبعضها بوليسي يدور حول اللصوص ومطاردة رجال العدالة لهم، وبعضها منتزع من الواقع يقص نبأ ما يعرض في دور القضاء من قضايا طريفة تكون وقائعها في بعض الأحيان أغرب من الخيال.

وهذا الكتاب يضم مختارات من قصص العالم ، ويجدر بنا أن ننوه بأننا لم نعهد إلى الترجمة الحرفية، وإنما أخذنا أنفسنا بنقل صورة حية لقصة كل كاتب بحيث يتمثل فيها أسلوبه وروحه. وقد دققنا أشد التدقيق في اختيار القصص حتى يخرج القارئ بمجموعة وافية منه يحتفظ بها في مكتبته، فلا يقرؤها لمجرد التسلية ثم يلقي بها غير عابئ.

المترجمون

نصيب الإنسان من الأرض

للكاتب الروسي/ تولستوي

يعد تولستوي من أئمة الأدب العالمي. وهذه القصة مثل من الأمثال التي اختارها لبيان عقيدته في الحياة. وقد صور فيها تصويراً أخاذاً ينبض بالحياة ذلك المالك الجشع الذي أراد أن يصيب من الأرض ضيعة كبيرة فكان نصيبه أشباراً معدودة...

كانت الأخت الكبرى التي تزوجت تاجراً من تجار المدينة تزور أختها الصغرى زوجة الفلاح. وأخذت تفاخر وهي تحتسي الشاي بالمعيشة في المدينة وما تنعم به من حياة ميسرة رخية. فهي ترتدي دائماً الملابس الجميلة، كما أن أطفالها أنفسهم يظهرون في حلل نظيفة أنيقة. وهي لا تأكل إلا ما يحلو لها ولا تشرب إلا ما يروقها، وإذا شاءت الترويح عن نفسها كان لها الخيار بين رياضة المشي والذهاب إلى المسرح.

وأثار هذا الكلام بعض الشجون في نفس الأخت الصغرى فعقبت عليه بما يحط من قدر التاجر ويعلي من شأن الفلاح: "قد تكون حياتنا هنا في الريف كئيبة. ولكنها على الأقل خالية من المنغصات لا يسممها الخوف مما يضمره الغد. فأنتم تنعمون يوماً برغد العيش، وقد يصيبكم الإملاق في يوم آخر. أما نحن فنستطيع دائماً أن نجد كسرة من الخبز نتبلغ بها، ولو أن بيننا وبين الغنى والثراء بوناً شاسعاً".

فردت الأخرى ساخرة: "أي نعم، أنكم تعيشون عيشة الخنازير والأبقار، ولن تشعروا قط بنعيم الحياة. فلقد ولدتم في الوحل وستعيشون وتموتون غارقين في الأقذار أنتم وأولادكم".

واتكأ بوخوم زوج الأخت الصغرى على قمة الموقد، وأصغى في غير احتفال إلى ثرثرة المرأتين ثم راح يتدبر الأمر "كل هذا صحيح إن متاعبنا ناجمة من أننا لا نملك من الأرض ما يكفينا. ولو أنني أصبت منها ما يكفيني لما استطاع الشيطان نفسه أن يخيفني أو يروعني".

وانتهت المرأتان من احتساء الشاي، وأصلحتا من شأنهما ثم ذهبتا إلى فراش النوم.

وكان الشيطان مقعياً وراء الموقد فلم يغب عن أذنه شيء من هذا الحديث. وقد سر أبلغ السرور لسماعه بوخوم يقول إنه لو قيض له ما يكفيه من الأرض لاستطاع أن يتحدى الشيطان نفسه. ضحك الشيطان في سره وأخذ يحدث نفسه قائلاً: "فليكن ما أدرت أيها الصديق العزيز، وليبلون كل منا صاحبه، سأعطيك نصيباً وافراً من الأرض، وهذه الأرض ذاتها هي المأخذ الذي سأنالك منه".

وسرعان ما تحققت أمنية بوخوم فقد تيسر له أول الأمر بشحه وتقتيره أن يشتري شقة لا بأس بها من الأرض التي تجاوره. وزادت مسئولياته فزادت متاعبه، ولكنه كان على كل حال قانعاً راضياً.

ثم اتفق في يوم من الأيام أن استضاف فلاحاً لبيت عنده ليلته،

وأنبأه الفلاح بنبأ أرض عجيبة على نهر الفلجا، تغل محصولاً وافراً ولا تكاد تحتاج إلى من يثيرها أو ينشبها فضلاً عن رخصها الشديد وما أن سمع بوخوم بهذا النبأ حتى باع شقة الأرض الصغيرة التي اشتراها وشيكاً وخرج يسعى في طلب الأرض الموعودة.

وتحقق كل ما عقده من آمال على هذه الأرض. ولكن متاعب جديدة واجهته في هذه الناحية أيضاً. ذلك أنه لم يجد فيها كفايته من الأرض الصالحة زراعة القمح، فاضطر إلى استئجار أرض أخرى. وقد استطاع بفضل انكبابه على العمل وما وفق إليه من محصولات طيبة متعاقبة أن يوفر قدراً من المال بعد خمس سنين.

وهم بوخوم بأن يشتري من جار له أخنى عليه الدهر الأرض التي يصلح بها ملكه، ولكن القدر حال بينه وبين ما يريد. فقد اتفق أن حدثه تاجراً غريب عابر عن بلاد الباشغرد العجيبة وأنه استطاع أن يشتري فيها خمسة آلاف فدان من أجود الأرض بألف روبية، أي بالمبلغ نفسه الذي وفره بوخوم.

ثم أردف التاجر بلهجة التوكيد "ولا يقتضيك الأمر إلا كسب مودة مشايخ القوم. وقد أهديتهم أنا بعض الجلاليب والسجاجيد وصندوقاً من الشاي، وداومت على تقديم الخمر لهم. فكلفتني الأرض نحو قرشين لكل فدان".

واستخرج هذا التاجر حجة الملكية ووصف الأرض بأنها سهل يغطيه الكلأ ويخطه نهر.

ثم استأنف التاجر حديثه متحمساً "وهناك من الأرض الطيبة ما لا تستطيع أن تدور حوله في سنة كاملة. وهذه الأرض كلها يملكها الباشغرد، وهم قوم بلهاء سذج كقطيع من الغنم .. وفي مقدورك إن شئت أن تأخذ منهم ما تريد من غير أن تدفع شيئاً تقريباً".

وعندئذ سرح خيار بوخوم مرة أخرى وصح عزمه على أن يحتفظ بنقوده في جيبه. ولا يعلم إلا الله مساحة الأرض التي سوف يبتزها بوخوم من الباشغرد في مقابل المبلغ الذي كان سينقده لجاره الذي أخنى عليه الدهر دفعة أولى من ثمن بضع مئات من الفدادين.

وأخذ بوخوم يستوثق من جميع التفاصيل الخاصة بخير الطرق المؤدية إلى أرض الباشغرد، وتجهز من فوره للقيام بهذه الرحلة، وترك أمر العناية ببيته إلى زوجته ثم استصحب رفيقاً واحداً وخرج قاصداً المدينة المجاورة. واشترى منها ما أشار به التاجر الغريب من جلاليب وسجاجيد وصندوق من الشاي وقد من الخمر. ثم بدأ الرجلان رحلتهما راكبين عربة.

وجداً في السير فبلغا مضارب الباشغرد بعد أسبوع قطعاً فيه ما يزيد على ثلاثمائة ميل.

وألفى الرجلان أن التاجر الغريب قد صدق كل الصدق فيما رواه عن هذه البلاد. فقد كان الباشغرد ينزلون من مضارب من اللبد على ضفاف نهر صغير. وكانوا قوماً من البدو لا يحرثون الأرض قط ولا يأكلون الخبز، يقضون حياتهم متجولين في الفيافي ومعهم خيولهم وماشيتهم، وكل ما يؤثر عنهم أنهم يشربون خمير اللبن ويأكلون لحم الضأن وينفخون في

مزاميرهم. وهم إلى ذلك غارقون في دياجير الجهل لا يستطيعون النطق بكلمة روسية واحدة، ولكنهم عرفوا بشدة الكرم والجود.

وما أن لمح القوم بوخوم وصاحبه مقبلين عليهم حتى خرجوا جميعاً من خيامهم والتفوا بهما. ومن حسن التوفيق أنه كان يحل بينهم مترجم فاستطاع بوخوم أن يتفاهم معهم، وأن يصرح لهم بأن الغرض من زيارته لهم هو الحصول على قطعة من الأرض.

ورحب الباشغرد به أيما ترحيب وذهبوا به إلى خير خيامهم وأجلسوه على حشد من الوسائد الناعمة نثرت على سجاجيد من الحرير. وقدموا له الشاي وخمير اللبن، ونحروا شاة خصوه بأطايبها.

وأمر بوخوم خادمه بإحضار الهدايا من العربة وقدمها إلى مضيفيه ووزع عليهم الشاي وناول كلاً نصيباً من الشراب.

وبدأ المترجم حديثه قائلاً "أحب أن أقول لك أنهم يشعرون نحوك بخالص المحبة والوداد. وقد جرى القوم على أن يعاملوا الغرباء أطيب معاملة وأن يردوا الهدية بمثلها. وما عليك إلا أن تفصح عن خير ما تتوق إليه نفسك هنا فيكون من نصيبك جزاء لك على ما منحت من هبات".

فأجاب بوخوم "أن خير ما تتوق إليه نفسي هو أرضكم. ذلك أن الأرض في بلادنا لا تكفينا. ثم إن الأرض الصغيرة الرقعة التي نملكها لا تدر من الغلات بقدر ما يبذل فيها من جهد. أما أنتم فتملكون من الأرض الطيبة قدراً عظيماً، ولم أر في حياتي أرضاً تدانيها".

ونقل المترجم إلى القوم حديث بوخوم. فعاد الباشغرد إلى التداول، ولم يفهم هو كلمة واحدة مما يقولون، غير أنه استنتج أن إجابته قد روحت عن نفوسهم واستخفت قلوبهم بالسرور لأنه رآهم قد انفجروا ضاحكين صاخبين.

ثم لزموا الصمت وانطلق المترجم يقول: "لقد رأى القوم أن أنبئك بأنهم قد عزموا على إعطائك ما تحب من الأرض تقديراً منهم لكرمك وسماحتك".

أخذ بوخوم يتدبر الأمر ويتساءل "ما الذي يقصده المترجم بقوله أنني أستطيع أن أصيب من الأرض بقدر ما أحب؟ إني لأود أن يجري البيع والشراء بالقسطاس المستقيم. ولو تم الأمر على خلاف ذلك ووضعت يدي على هذه الأرض أو تلك لجاز أن يأتيني رجل فينازعني ملكي".

والتفت بوخوم إلى شيخ القوم وقال في صوت جهير "أنا شاكر لكم أبلغ الشكر على هبتكم الكريمة السخية. وإني لأعلم أنكم تملكون نصيباً وافراً من الأرض، ولكني لا أسألكم أن تعطوني منها الكثير. وكل ما أريد هو أن تحيطوني علماً بالمقدار الصحيح الذي سمحت نفسكم بأن تعطوني إياه. أحب أن تحدد معالم الأرض الذي سأضع يدي عليها وأن تتم إجراءات البيع على أساس سليم، ذلك أن مصيرنا جميعاً إلى الموت. فما لم تسو الأمور على ما بينت فإن أولادكم قد يتطلعون إلى انتزاع ما منحتموني إياه عن طيب خاطر".

فضحك شيخ مشايخ القوم وقال "حسناً، حسناً، ستتم الإجراءات بحسب جميع القواعد والسوابق المعمول بها".

وأردف بوخوم "لقد بلغني أن تاجراً زاركم منذ عهد قريب وأنكم منحتموه نصيباً معلوماً من الأرض، وأن عقداً صحيحاً قد أبرم معه بهذه المناسبة. فأرجوكم أن تعاملوني بمثل ما عاملتموه".

وفهم شيخ مشايخ القوم تماماً ما قصد إليه بوخوم، وأجابه قائلاً "ليس ثمة ما يدعو لإقامة العراقيل في هذا الشأن. فلدينا هنا كاتب متمكن من مهنته، وما علينا إلا أن نذهب جميعاً إلى أقرب مدينة، ونحرر حجة تذيل بما يقتضيه الأمر من أختام".

وسأل بوخوم "والثمن؟ أرجو أن تخبروني بما يجب علي دفعه".

"نحن لا نبيع الأرض إلا بثمن واحد. فاليوم بألف روبية".

وقد بوغت بوخوم بتقويم ثمن الأرض باليوم، وعجز عن أن يجيب من فوره ثم سأل أخيراً: "ما عدد الفدادين الذي يصيبه المرء في عرفكم هذا؟".

"من المستحيل تقدير عددها جزافاً. فكل الأرض التي تستطيع أن تحيط بها في يوم بطوله تصبح ملكاً لك. واليوم بألف روبية".

وتحير بوخوم في أمره ولم يك في وسعه إلا أن يدير الجواب في نفسه: "تستطيع أن تحيط بقدر وافر من الأرض في اليوم".

"وستصبح هذه الأرض ملكك مهما بلغت رقعتها بشرط واحد هو أنه يجب عليك أن ترجع إلى النقطة التي بدأت منها وإلا ضاع عليك مالك".

فسأل بوخوم "ومن ذا الذي سيضع حدود الأرض التي أمر بها؟"

"تستطيع أن تختار بنفسك المواضع التي تحب أن تقيم فيها معالم الحدود. ويصح أن يصحبك شبان من رجالك على ظهور جيادهم ويدقون وتداً حيثما تشاء. ثم توصل جميع الأوتاد بأخدود يخطه محراث، ولك الخيار في أن تخص نفسك بما يحلو لك من الأرض بشرط أن تعود، كما سبق أن بينت لك، إلى النقطة التي بدأت منها قبل مغرب الشمس" وبدا لبوخوم أن هذه السنة التي جرى عليها القوم برضية له كل الرضا. وتقرير أن يبدأ مسيره في فجر اليوم التالي.

وشرب بوخوم مع مضيفيه الشاي وخمير اللبن وأصاب شيئاً من لحم الضأن الذي أعدوه له. ثم أفردوا له فراشاً من الريش وأوى الجميع طلباً للراحة.

وأضجع بوخوم على فراشه، ولكنه لم يستطع أن ينتزع من رأسه فكرة الأرض فظلت تؤرقه، وأخذ يبدأ وينتهي بقوله "إنني لم أسيء التصرف، فقد قصدت أن أخط ملكاً ثابتاً لي، واليوم في هذا الفصل يكاد يبلغ السنة طولاً. وإني لأستطيع في يسر أن أحيط في سيري لثلاثين ميلاً، ثلاثين ميلاً سوياً! ولسوف أغدو أخيراً سيد نفسي، لا أعتمد على أحد. سيكون في مقدوري أن أشتري ثورين يجران المحراث وأن أستأجر نفراً من الفعلة وأزرع أطيب ما في الأرض، ثم أدع ماشيتي ترعى في سائرها".

وقضى بوخوم ليلته على هذا النحو يقظان قلقاً. ولم يستسلم للنوم إلا قبيل الفجر، فرأي في المنام حلماً؟

وبدا له في الحلم أنه ما زال مقيماً في الخيمة نفسها. وترامى إلى سمعه من الخارج ضحكات مجلجلة. ودفعه الفضول إلى معرفة جلية الأمر فهب من فراشه وخرج. فوجد شيخ مشايخ القوم جالساً أمام الخيمة وقد شبك يديه على بطنه، وكان جسمه يختلج من الضحك، فاقترب منه بوخوم وسأله: "ما الذي جعلك تغرب في الضحك هكذا؟".

أدرك بوخوم فجأة أن الرجل الذي جلس أمامه لم يكن شيخ مشايخ الباشغرد، وإنما كان الفلاح الذي أنبأه بنبأ الأرض الطيبة القريبة من نهر الفلجا. وما أن تبين بوخوم هذا الفلاح حتى اختفى وتقمص أمام عينيه الشيطان نفسه بظلفيه المشقوقين وقرينه النابتين في جبهته. وراح الشيطان يحملق متفرساً في شيء ويضحك ضحكاً كادت تنشق له مراراته، فتعجب بوخوم وتساءل "فيم يحملق هكذا متفرساً؟ وما الذي أغراه بكل هذا الضحك؟".

واقترب بوخوم شيئاً فشيئاً ثم فزع وارتاع وأخلد إلى السكون. ما هذا؟ لقد تمدد على الأرض في جواره رجل لا يرتدي إلا قميصاً وسروالين وبدت رجليه عاريتين. كان مطروحاً على ظهره وعينيه شاخصتين إلى السماء وقد أبيض وجهه حتى أصبح في لون الطباشير.

وأمعن بوخوم النظر في الرجل متفرساً فرأى فيه نفسه، فصاح صيحة المكروب اليائس واستيقظ من نومه، ثم ندت منه صيحة خانقة "ما أعجب ما يمر بالإنسان في أحلامه!" وهم بأن يعود إلى النوم ولكنه تبين أن تباشير الفجر أخذت تلوح في السماء فهمهم "لقد حان الوقت، وهب الآخرون

من نومهم، ولا شك في أنهم قد غادروا خيامهم الآن فعلاً".

واستيقظ بوخوم من نومه، وذهب ليوقظ خادمه، وأمره بأن يسرج الخيل وينادي الباشغرد. ولم يلبث الباشغرد أن اجتمعوا ومن بينهم شيخ مشايخهم، وأغلظوا على بوخوم أن يشرب خمير اللبن ويتناول الشاي، ولكنه كان يتحرق شوقاً إلى البدء في السير، فأجابهم قائلاً: "لقد أزف وقت المسير، ولنبدأ على الفور".

وانطلق الموكب الصغير فامتطى بعض الباشغرد صهوة جيادهم وركب بعضهم العربات، أما بوهوم فقد ركب هو وخادمه عربته. وسرعان ما بلغ الجمع الفيافي.

وتوقف الركب على قمة تل صغير وقد همت الشمس بأن تطل من الأفق، وترجل الباشغرد ودنا شيخ مشايخهم من بوخوم ومد ذراعه وبسط سبابته مشيراً إلى السهول المترامية الأطراف المنبسطة أمامهم قائلاً: "كل هذه الأرض ملك لنا. وأنت تستطيع أن تشملها جميعاً بناظريك فاختر منها ما يحلو لك".

والتمعت عينا بوخوم فجأة. فقد كانت الأرض ممتدة إلى الأفق البعيد حافلة بالكلأ مستوية كراحة اليد سمراء كبذرة الفوفل. وكان العشب على اختلاف أنواعه، وبعضه يبلغ ارتفاع قامة الرجل، ينم عن الوديان.

وخلع الشيخ الأكبر قلنسوته المصنوعة من الفراء ووضعها على الأرض فوق قمة التل تماماً، ثم قالَ: "هذه هي العلامة، وسيبقى خادمك

بجوارها. ضع نقودك في القلنسوة ومن هذه النقطة يجب أن تبدأ وإليها تعود، وكل ما ستحيط به من الأرض فهو ملكك".

وأخرج بوخوم الألف الروبية من جيبه ووضعها في القلنسوة. ثم خلع عباءته وأبقى على قفطانه وشد على وسطه. وكان قد تزود بقدر قليل من الحنطة الجافة وضعها في مخلاة صغيرة وتدلت على كتفيه جرة مملوءة بالماء، وحرك نعليه للمرة الأخيرة متوثباً وقد استعد كل الاستعداد للبدء في السير.

وتوقف بوخوم دقيقة أو دقيقتين مستغرقاً في التفكير. وتحير في أي اتجاه يسير؟ ذلك أن الأرض كانت جيدة حيثما اتجهت. ثم صحت نيته على أن يسير شرقاً لأنه لم يكن ثمة سبب واضح يدعوه إلى تفضيل اليمين على الشمال.

وتطلع بوخوم إلى السماء المتلألئة. وبسط أطرافه، وانتظر طلوع الشمس.

وراح يفكر "يجب أن لا أضيع دقيقة واحدة، فالمشي في ساعات الصباح الرطيبة مريح لا يجهد المرء. ولا مناص من أن استغل كل فرصة تواتيني".

وعاد بعض شباب الباشغرد إلى امتطاء صهوة جيادهم استعداداً لمصاحبة بوخوم. وما إن ظهر طرف الشمس فوق الأفق حتى بدأ بوخوم سيره، وما لبث أن توغل في قلب الفيافي يتبعه الفرسان.

واستقر رأيه على أن يسير بخطى معتدلة فلا يبطئ ولا يتعجل. فلما قطع الميل الأول دق وتد ثم استأنف سيره. وألفت رجلاه هذه الرياضة فزاد من سرعته شيئاً ما.

ودأب بوخوم على السير مطرد الخطى، وأخذ يسير ويسير ويسير. فلما تبين له أنه قطع ميلاً آخر بحسب تقديره أمر بدق وتد آخر. ثم تطلع إلى الخلف فرأى التل واضحاً لناظريه وقد غمره ضوء الشمس الساطعة. واستطاع أن يميز بوضوح ذلك النفر من الباشغرد فوق قمة التل.

وما أن انقضى جزء من النهار حتى كان بوخوم قد قطع نحواً من ثلاثة أميال، وعندئذ صح عزمه على أن يخلع قفطانه. وكانت بشائر النهار تنذر بأنه سيكون حاراً، بل إن الحرارة كانت مجهدة فعلاً. وعاد بوخوم إلى شد حزامه وسار ثلاثة أميال أخرى.

على أن الحرارة اشتدت وأخذت تزهق الأنفاس. وتطلع بوخوم إلى الشمس فأدرك أن الوقت قد آذن بأن يقطع صيامه. وسرح بفكره:

"هاأنذا في نهاية الربع الأول من النهار، وهو يشتمل على أربعة أوقات كل منها يماثل هذا الربع. ولم يحن الحين بعد للانعطاف. وأظن أنه من المستصوب أن أخلع نعلي".

وجلس بوخوم وخلع نعليه ثم استأنف المسير.

"سأغذ السير ثلاثة أميال أخرى ثم انعطف إلى اليسار. فإن الأرض هنا أجود من أن أتركها. والحق أنني كلما أوغلت في السير طابت الأرض".

وجد بوخوم في السير إلى الأمام وأحس بعد برهة بالرغبة تعاوده في أن ينظر خلفه. وفي هذه المرة لم يتبين التل إلا بصعوبة. أما الباشغرد الذين استقروا على قمته فقد بدوا أقرب إلى النمل منهم إلى الأناسي.

وتنهد بوخوم "آه، لقد حصلت الآن على شيء أشبه بشقة من الأرض! على أنه يجدر بي حقاً أن أنعطف في سيري".

وأخذ العرق يتصبب من وجهه، وأحس بعطش شديد. ولكنه داوم على المسير وتناول جرعة كبيرة من جرته. ثم أومأ إلى الباشغرد أن يدقوا وتداً آخر وانعطف انعطافاً حاداً إلى اليسار.

وجد بوخوم في السير منطلقاً في الاتجاه الجديد. وكان الكلأ طويلاً غليظاً والحر لافحاً. فبدأ يشعر بتعب شديد وشخص ببصره إلى الشمس، فأدرك أن الوقت قد حان لتناول غذائه. ورأى أن من الخير أن ينال قسطاً من الراحة، فقطع سيره وفتح مخلاته وأصاب شيئاً من الطعام وهو واقف.

وراح يفكر "لو أنني جلست لأغراني ذلك ببسط جسمي كله، ثم أن التعب الشديد الذي اعتراني لخليق بأن يفضي بي إلى النوم حتما".

وهكذا ظل بوخوم واقفاً حيث كان دقائق معدودات، ثم تنفس تنفساً عميقاً واستأنف سيره. وأنعشه ما أصابه من طعام فمضى في طريقه في شيء من اليسر. على أن الحر أصبح شديداً لا يطاق، فأحس بوخوم برغبة في النوم كاد يعجز عن دفعها. والحق أنه كان قد برح به التعب، فراح يشحذ من عزيمته حتى تلعق الصبرا".

وحاول أن يقطع أربعة أميال أخرى. وما أن هم بالانعطاف إلى اليسار للمرة الثانية، حتى راعته رؤية واد وافر الخصب يمتد أمامه مباشرة.

"غير مجد في اعتقادي أن أتركه خارج نطاق أملاكي. يا للمحصول الطيب من الكتان الذي سوف يغله هذا الوادي!".

ودأب بوخوم على السير، فقد صمم على امتلاك الوادي مهما كان الثمن. ودق وتد على الجانب الآخر منه ثم انعطف بوخوم.

وتطلع مرة أخرى إلى التل، فوجد أنه لا يستطيع أن يميز ذلك النفر من الباشغرد إلا بصعوبة. فقد كان بينه وبينهم مسيرة عشرة أميال على الأقل. وعندئذ قال بوخوم: "لقد جعلت ضلعي الأرض الأولين طويلين ويجب أن يكون هذا الضلع أقصر منهما".

وزادت خطواته الآن سرعة على الرغم من تعبه، وكانت الشمس تقترب من الأفق، ولا تلبث أن تتم دورتها اليومية. إلا أن بوخوم لم يك قد قطع من الضلع الثالث إلا ما يزيد قليلاً على الميل وما زال أمامه عشرة أميال بطولها ليبلغ هدفه. فتنهد قائلاً: "لا حيلة لي، ولا مناص من أن أمضي الآن قدماً إلى التل. ولسوف تكون أرضي غريبة الشكل، ولكنني لا أستطيع لك دفعاً، ومع كل فإني سأصيب منها ما يكفيني كل الكفاية".

وولى وجهه شطر الهدف.

ومضى في طريقه إلى التل لا يلوي على شيء، وقد تملكه الكرب

واليأس وتورمت رجلاه ونالت منها الرضوض فآلمته أمض الألم وتداعت مفاصله. وكم كان يود أن ينعم بقسط من الراحة، بيد أنه لم يك ثمة محل لأي توقف.

"ماذا يكون مصيري لو أنني عجزت عن بلوغ الهدف في الوقت المحدد؟ ما أبعد الشقة بيني وبين هذا الهدف. لشد ما أتمنى أن يسكن الألم الذي يشيع في قدمي! أوحق علي أن أفقد مالي وجهدي؟".

هيا يا بوخوم، ولتضاعف من جهدك! حاول أن تحقق المستحيل!

وعندئذ انطلق بوخوم يجري. وكانت قدماه تدميان، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين المضي في طريقه. فاستمر يعدو مسابقاً الزمن! على أن الهدف ظل بعيداً. فتخلى عن جرته، وأطاح بقلنسوته وقذف بنعليه، وراح ينحسر:

"أواه. لقد كان الطمع سبباً في هلاكي. ولن أستطيع قط أن أبلغ الهدف قبل أن تغرب الشمس".

وكاد خوفه من هذا المصير يأخذ بمخانقه، وعجز عن أن يتنفس تنفساً عميقاً، ولكنه راح يعدو وقد جف حلقه والتصقت سراويله وقميصه بجسمه يفعل العرق المتصبب منه. وأخذ صدره يعلو ويهبط ككير الحداد، وراح قلبه يدق دقاً عنيفاً. وعاد لا يحس بقدميه، وتداعت ركبتاه، وبلغ منه الكلال كل مبلغ.

ونسى يوخوم الأرض وغاب عن خاطره كل شيء، وتملكت نفسه الخشية من أن يسقط ميتاً من التعب والإجهاد.

وكان بوخوم مرتاعاً أشد الارتياع من الموت.

وشرع يحدث نفسه وهو يسابق الزمن "فكر أيها الرجل، أنك لو توقفت عن الجري لظهرت بمظهر الغر المأفون!".

وكان يسمع الباشغرد يصفرون ويصيحون، فحفزه ذلك إلى التشديد من عزيمته ودفعه إلى عدم الاستسلام.

واستجمع بوخوم كل قوته، وبذل آخر ما في طوقه من جهد. وكان الهدف قريباً دانياً، ولكن الشمس كانت تختفي وراء الأفق رويداً رويداً.

وظهر الآن كل رجل فوق قمة التل وتجلي. وكان كل واحد من هؤلاء يلوح له حاثاً إياه على الإسراع. بل أن بوخوم نفسه قد أصبح في مقدوره أن يرى القلنسوة التي وضع فيها نقوده ملقاة على الأرض. وكان شيخ الباشغرد الأكبر متربعاً إلى جوارها مشبكاً يديه على بطنه. وعندئذ تذكر بوخوم فجأة الحلم الذي رآه في منامه، فغمغم قائلاً: "صحيح أنني سأنال جميع الأرض التي صبوت إليها. ولكن هل قدر لي أن أعيش عليها؟ لقد كنت أنا السبب في هلاك نفسي".

ثم مضى يجري، ورفع عينيه إلى الشمس، فوجد قرصها الأحمر الكبير يكاد يلمس الأرض، بل ها هو ذا قد مسها الآن فعلاً. وما هي إلا برهة وجيزة حتى يختفي جزؤه الأسفل. وما أن بلغ بوخوم التل بعد أن ظل يجري طوال هذا الوقت حتى غياب ذلك القرص المتوهج عن الأنظار.

وندت من بوخوم صرخة يأس أوحت إليه بأنه قد فقد كل شيء. ولكن لا، فما زالت أمامه فرصة أخيرة! ذلك أنه أدرك فجأة أن الشمس ولو أنها غابت عن ناظريه وراء التل، إلا أنها ما زالت ظاهرة لأولئك الواقفين على قمته.

استجمع بوخوم كل ما بقى منه قوة، وارتقى المنحدر وثباً.

ها هي ذي القلنسوة! لقد انتصرت!

وفقد سيطرته على قدميه وانزلق ولكنه بسط يديه وهو يسقط ولمس القلنسوة.

وصاح شيخ مشايخ الباشغرد "مرحى! مرحى! لق كسبت ضيعة جميلة".

واندفع خادم بوخوم ليعين سيده على النهوض، بيد أنه رأى خيطاً من الدم ينبثق من فمه ..

كان بوخوم قد مات!

وانفجر الشيخ الأكبر ضاحكاً، وكان قد تربع على الأرض وشبك يديه على بطنه. ثم نهض وتناول مجرفاً قذف به إلى الخادم:

"خذ هذا المجرف واحفر له قبراً".

وامتطى الباشغرد صهوة جيادهم وذهبوا إلى حال سبيلهم تاركين الخادم مع جثمان سيده. وراح الخادم وحده يحفر حفرة عمقها ست أقدام، أي بطول الجثمان تماماً، ثم دفن فيها بوخوم.

العصفورة الزرقاء

للكاتب البلجيكي / موريس مترلنك

ولد موريس مترلنك سنة ١٨٦٢، وهو بلجيكي غلبت عليه الثقافة الفرنسية، فكان يكتب بلغة الفرنسيين. وقد ألف مترلنك عدة مسرحيات بديعة، أشهرها العصفورة الزرقاء. وهو يميل في مسرحياته إلى الأدب الرمزي. والعبرة المستفادة من هذه المسرحية هي أن البحث عن السعادة بحث عقيم لا طائل تحته، ذلك أنها لا تطلب من الخارج وإنما هي تتبع من أعماق النفس.

تدور حوادث هذه المسرحية حول طفلين، تيتيك وأخته ميتيل، خرجا يبحثان عن العصفورة الزرقاء، فلما عادا تبين لهما أنهما ذهبا بعيداً، وأن العصفورة الزرقاء كانت ماثلة عندهما لا تبرح.

...

يرتفع الستار عن تيتيك وميتيل مستغرقين في النوم في سريرهما في الليلة السابقة على عيد الميلاد. ثم يستيقظان ويفتحان النافذة ليطلا منها. وينفرج الباب شيئاً ما، وتدلف إلى الغرفة امرأة عجوز قليلة الجسم محدودبة الظهر قصيرة النظر عرجاء تتوكأ على عصا، قد ارتدت رداء أخضر ووضعت على رأسها طرطوراً أحمر فبدت للناظرين جنية من الجنيات. وناولت المرأة الطفلين ماسة كبيرة مسحورة تكشف عن البصر.

وأدار تيتيل الماسة فتغير كل شيء. استحالت الجنية العجوز أميرة رائعة الحسن، وتبدل لون جدران الغرفة فبدا أزرق في لون السماء الصافية، واكتسى أثاثها المتواضع حلة جديدة فأصبح ثميناً نفيساً. واتخذت أرواح الأرغفة هيئة رجال صغار يلبسون ملابس محبوكة في لون وجه الرغيف، وقد أمسكت بهم النار المنبعثة من المدفئة متقمصة أردية محكمة صفراء وقرمزية. وكذلك استحال الكلب والقطة شخصين وجه الأول كوجه البول دوج ووجه الثاني كوجه السنور، وخرج من وعاء اللبن المقلوب شخص حي طويل أبيض اللون. وانقلب رغيف السكر مخلوقاً بادي النفاق تتقحمه العين، كل إصبع من أصابعه عصا من السكر، ثم سقط المصباح من فوق المائدة فانشق عن شيء عجيب! صبية متلألئة هي الضياء.

وتأخذ الجنية الجميع إلى منزلها فيجدون أن كل ما فيه من حيوانات وأشياء قد بدا في أحسن حلة وأفخم لباس. ثم تبعث بهم الجنية في مغامراتهم يقودهم الضياء حاملين معهم قفصاً خالياً ليضعوا فيه العصفورة الزرقاء، وينطلق الجمع باحثين عنها آملين أن يجدوها.

ويزورون "أرض الذكرى" لعل العصفورة الزرقاء مختبئة فيها. ويلتقي تيتيل وميتيل في أرض الذكرى بأجدادهما وجداتهما ويقضيان هناك وقتاً سعيداً. ويأخذان عصفورة جدهما، وكانت عصفورة سوداء عجوزاً. فتتولاهما الدهشة لأنهما وجداها زرقاء تامة الزرقة، فيضعانها في القفص. ولكن فرحتهما لا تتم. ذلك أنهما ما إن مرا في عودتهما بالغابة وخيم عليهما ضبابها وظلامها حتى انقلبت العصفورة سوداء. ثم زار الجميع "قصر الليل"

حيث انضمت إليهم النجوم وعطور الليل والسراب واليراعات والندى الشفاف، وأخذت البلابل تصدح بأنغامها الشجية. ووجدوا هناك آلافاً من العصافير الزرقاء وأمسكوا طائفة منها، ولكن العصافير الممسوكة كانت لا تلبث أن تودع الحياة وتسقط رؤوسها على صدرها وتتدلى أجنحتها. وانطلقوا بعد ذلك إلى الغابة فألفوا العصفورة الزرقاء جاثمة فوق شجرة البلوط. فلما هم الطفلان بإمساكها هاجمتهما الأشجار ولم يخلصهما من براثنها إلا الضياء. وذهب بهم الظن إلى أن العصفورة الزرقاء موجودة في "قصر السعادة" ولكن تفتيشهم عنها بين مناعم هذه القصر ومباهجه باء بالخسران. ولما غادرا قصر السعادة شكر "الحب الأموي" و"لذة المعرفة" الضياء على حدبه على الطفلين ورعايته لهما، وعانقاه قبل أن يرحل عنهما. ويسأل تيتيل وهو يرى الدموع تجول في أعينهم "لماذا تجول الدموع في أعينكم جميعاً!" فيجيبه الضياء "صه أيها العزيز".

والمنظر التالي يصور زيارتهم "المقبرة" و"مملكة المستقبل".

الفصل الخامس

المنظر الأول - أمام الستار

يدخل تيتيل وميتيل والضياء والكلب والقطة والخبز والنار والسكر والماء واللبن.

الضياء – بلغتني رسالة من الجنية بريلون تقول فيها أن العصفورة موجودة هنا فيما يرجح.

تيتيل – أين؟

الضياء – هنا، في المقبرة خلف ذلك الجدار ... والظاهر أن أحد الأموات في هذه المقبرة قد أخفاها في قبره ... ويجب علينا أن نعرف أي الأموات فعل ذلك؟ ولنستعرضهم جميعاً.

تيتيل – نستعرضهم؟ وكيف يتيسر لنا ذلك؟

الضياء – المسألة في غاية البساطة، وما عليك إلا أن تدير الماسة في منتصف الليل حتى لا يشتد انزعاجهم فنراهم خارجين من تحت الثرى، أو نعرف من لم يخرج منهم وآثر الإخلاد إلى قبره.

تيتيل – ألا يغضبهم ذلك؟

الضياء – مطلقاً. وسوف لا يعرفون شيئاً. صحيح أنهم لا يحبون أن يزعجهم أحد، إلا أنهم جروا على الخروج في منتصف الليل، وليس في هذا الخروج ما يقلق راحتهم.

تيتيل – لماذا شحب لون الخبز والسكر واللبن ولاذوا بالصمت.

اللبن (مترنحاً) أحس بأنني سـ ....

الضياء – (يسر إلى تيتيل) – لا تلق بالك إليهم، إنهم خائفون من الموتى.

النار (تطفر وتنط) أنا لست خائفة منهم! ... لقد اعتدت أن أحرقهم. وكان الزمن حاضراً عندما حرقتهم كلهم، كان ذلك أمتع مما هو اليوم.

تيتيل – وما بال تيلو يرتعد؟ .. أخائف هو أيضاً؟

الكلب – أنا؟ أنا لا أرتعد. أنا لا أخاف قط. ولكنكم إذا غادرتم هذا المكان فلابد لي من الرحيل أيضاً.

تيتيل – والقطة، أليس لديها شيء تقوله؟

القطة (ملغزة) أنا عليمة بما هنالك.

تيتيل (مخاطباً الضياء) هل تأتي معنا؟

الضياء – لا. فمن الأصوب أن أبقى عند باب المقبرة مع الأشياء والحيوانات. فقد يرتاع بعضهم ويسيء الآخرون التصرف. وربما أرادت النار بصفة خاصة أن تحرق الموتى كدأبها منذ القدم، وهذا لا يصح أن يباح لها بعد .. سأتركك وحدك مع ميتيل.

تيتيل – ألا يبقى معنا تيلو؟

الكلب – نعم، نعم، سأبقى. سأبقى هنا! .. أريد أن أبقى مع إلهي الصغير!

الضياء – مستحيل ... فإن أوامر الجنية صريحة. زد على ذلك أن ليس ثمة ما تخاف ..

الكلب .. حسناً، حسناً، فذهابي وبقائي يستويان. وإذا ثبت أن الموتى شريرون يا إلهي الصغير فما عليك إلا أن تفعل هكذا (يصفر) وسترى ... سيحدث ما حدث في الغابة تماماً: وو! وو! وو!

الضياء – هيا يا طفلي العزيزين، أستودعكم الله .. سأكون قريباً منكما (يقبل الطفلين) كل ما يحبني وأحبه سيجدني دائماً! .. (موجهاً كلامه إلى الأشياء والحيوانات) هيا جميعاً من هذا الطريق .. (يخرج الضياء ومعه الأشياء والحيوانات. ويبقى الطفلان وحيدين في وسط المسرح. وترفع الستار عن المنظر الثاني).

المنظر الثاني - المقبرة

الوقت ليل. والقمر يرسل ضياءه على مقبرة في الريف. وتبدو عدة شواهد، وربى معشبة، وصلبان من الخشب ورضام (أي حجارة كبيرة) وغير ذلك. ويقف تيتيل وميتيل بجوار عمود حجري قصير.

ميتيل – أنا مرتاعة!

تيتيل – (قلق الخاطر) أنا لا ارتاع قط ..

ميتيل – أقول، هل الموتى قوم شريرون؟

تيتيل – لا أبداً، فهم ليسوا أحياء!

ميتيل – هل رأيت في حياتك ميتاً من الأموات؟

تيتيل – نعم، حدث ذلك مرة منذ وقت طويل عندما كنت صغيراً جداً.

ميتيل – قل لي، كيف كان؟

تيتيل – كان أبيض شديد البياض، ساكناً مغرقاً في السكون، بارداً كالثلج لا يتكلم ...

ميتيل – خبرني، هل سنرى الموتى؟

تيتيل – بلا شك، هذا ما قاله الضياء ....

ميتيل – أين هم؟

تيتيل – هنا – تحت العشب أو تحت هذه الحجارة الكبيرة.

ميتيل – أيقيمون تحتها طول العام؟

تيتيل – نعم.

ميتيل (مشيرة إلى الرضام) أهذه أبواب بيوتهم؟

تيتيل – نعم.

ميتيل – أو يخرجون منها إذا صفا الجو؟

تيتيل – إنهم لا يستطيعون الخروج إلا بالليل ....

ميتيل – لماذا؟

تيتيل – لأنهم يرتدون قمصانهم!

ميتيل – أو يخرجون أيضاً إذا أمطرت السماء؟

تيتيل – إذا أمطرت السماء لزموا بيوتهم.

ميتيل – وهل يطيب لهم العيش في بيوتهم؟

تيتيل – هم يقولون أنهم مقيدون فيها أشد القيد.

ميتيل – ألديهم أطفال صغار؟

تيتيل – أي نعم، لديهم جميع الصغار الذين يطويهم الموت ...

وميتيل – ومم يقتاتون؟

ميتيل – يقتاتون بالجذور ...

ميتيل – هل سنراهم؟

تيتيل – بلا ريب، سنرى كل شيء عندما أدير الماسة.

ميتيل – وما الذي سيقولونه؟

تيتيل – لن يقولون شيئاً، لأنهم لا يتكلمون ....

ميتيل – ولماذا لا يتكلمون؟

تيتيل – لأنه ليس لديهم شيء يقولونه ....

ميتيل – ولم لا يكون لديهم شيء يقولونه؟

تيتيل – أنت متعبة ....

(واقفة)

ميتيل – متى تدير الماسة؟

تيتيل – لقد سمعت الضياء يقول إنه ينبغي لك أن تنتظر حتى منتصف الليل لتخفف من إزعاجهم ..

ميتيل – ولماذا يخفف ذلك من إزعاجهم؟

تيتيل – لأن هذا الوقت هو وقت خروجهم لاسترواح النسيم ..

ميتيل – ألم ينتصف الليل بعد؟

تيتيل – ألا ترين ساعة الكنيسة؟

ميتيل – نعم، وأرى العقرب الصغير نفسه؟

تيتيل – ها هي ذي الساعة أوشكت أن تدق مؤذنة بانتصاف الليل، ها هي ذي تدق أتسمعين؟ (تدق الساعة اثنى عشرة دقة)

ميتيل – أريد أن أذهب!

تيتيل – ليس الآن .. سأدير الماسة ....

ميتيل – لا، لا! لا تفعل! أريد أن أذهب! يا أخي الصغير أنا مرتاعة جداً! ... يكاد الرعب يأخذ بقلبي!

تيتيل – ولكن، ليس ثمة خطر يتهددنا ....

ميتيل – لا أحب أن أرى الموتى! ... لا أحب أن أراهم! ..

تيتيل – حسناً سوف لا ترينهم أغمضي عينيك ....

ميتيل – (تتعلق بثوب تيتيل) تيتيل، لا أستطيع البقاء هنا! لا، لا أستطيع حقاً! .... سيخرج الموتى من باطن الأرض!

تيتيل – لا تنتفضي هكذا، سيخرجون لحظة ثم يعودون.

ميتيل – ولكنك تنتفض أيضاً! لا شك أن منظرهم سيكون مخيفاً مفزعاً!

تيتيل – قد أزفت الساعة، والوقت يمر.

(تيتيل يدير الماسة. ويعقب ذلك لحظة صمت رهيبة، وينقضي السكون ثم تترنح الصلبان رويداً رويداً وتنشق الربى وتقف الرضام ....)

ميتيل (متهالكة على تيتيك) أنهم يخرجون! ... ها هم أولاء يظهرون هناك!

(وعندئذ ينبعث من القبور المتثائبة شيئاً فشيئاً نواً رحي واهن كالبخار ثم يتكشف فيصبح أبيض نقياً كالعذارى، ثم يزهر ويثمر، ويستطيل ويتكاثر ويفتن العين بجماله وروعته. ثم يمتد رويداً رويداً لا يقف في طريقه شيء حتى يحيل المقبرة بستاناً من بساتين الحوريات صنعه الجان، وانطلقت خيوط الفجر الأولى تنير دياجيره، فيتلألأ الندى، وتتفتح الأزهار، ويداعب النسيم أوراق الشجر، ويطن النحل وتستيقظ الطيور وتملأ الجو بأناشيد الصباح محيية الشمس والحياة. وتعقد الدهشة لساني تيتيل وميتيل وتأخذ الحيرة بألبابهما، ويمسك كل منهما يد صاحبه ويسيران بضع خطوات بين الأزهار باحثين عن أثر القبور)

ميتيل (ناظرة إلى العشب) أين الموتى؟

تيتيل (يمد بصره أيضاً) ليس للموتى أثر.

ستار

المنظر الثالث - مملكة المستقبل

أبهاء واسعة جداً في القصر السماوي اللون حيث ينتظر الطفلان أولئك الذين لم تكتحل عيونهم بمرأى الحياة بعد. ومناظر لا تنتهي من

عمد من الياقوت الأزرق تدعم عقوداً من الفيروز. وقد اكتسى كل شيء مهما صغر بلون أزرق شديد الزرقة لا وجود له في عالم الحقيقة وإنما هو شيء أشبه بصنع الجن، يستوي في ذلك الضياء والبلاط اللازوردي والمنظر الخلفي المتلألئ الذي تظهر فيه العقود الأخيرة ثم تختفي. ولا يختلف عن ذلك إلا عقود العمد وتيجانها ومفاتيحها وعدد قليل من المقاعد وبعض الدكك، فقد صنعت جميعاً من الرخام الأبيض أو المرمر. وبدت إلى اليمين بين العمد أبواب كبيرة متلألئة. وهذه الأبواب التي يردها الزمن في أواخر المنظر تنفتح على مناظر الحياة الواقعية وأرصفة الفجر. وقد انتظم في كل ناحية من فناء القصور زحمة من الأطفال مرتدين ملابس مسترسلة في لون السماء الصافية. بعضهم يلعب، وبعضهم يتجول هنا وهناك وبعضهم يتحدث أو يحلم. وأكثرهم ينام أو يشتغل بين العمد في مخترعاته التي ستظهر في المستقبل. وقد اكتست أدواتهم وعددهم وأجهزتهم التي يقيمونها، والنباتات والأزهار التي يزرعونها أو يقطفونها باللون الأزرق المشعشع الخارج الذي غلب على جو القصر كله. وبدت أجسام أطول بناء من الأطفال مكتسبة حلة أفتح وأصفى زرقة، أجسام ذات جمال مهيب ساكن تسير بين الأطفال ويخيل لمن يراها أنها ملائكة.

ويدخل تيتيل وميتيل والضياء من الشمال خلسة أو يكادون، وينسابون بين العمد إلى صدر المكان. ويسبب وصولهم بعض الحركة بين الأطفال الزرق فيقبلون مهرولين من كل حدب وصوب ويلتفون

جماعة حول هؤلاء الزوار الخارقين للعادة ويحملقون فيهم بفضول.

ميتيل – أين السكر والقطة والخبز؟ ....

الضياء – هم لا يستطيعون الدخول إلى هنا. لأن دخولهم يكشف لهم المستقبل فيتمردون.

تيتيل – والكلب؟.

الضياء – ليس من الصواب أن يعرف ما ينتظره على مر الزمن .. ولقد حبستهم جميعاً في أقبية الكنيسة.

تيتيل – أين نحن؟ ...

الضياء – نحن في مملكة المستقبل، وسط الأطفال الذين لم يولدوا بعد .. ومن المرجح أننا سنعثر هنا على العصفورة الزرقاء لأن الماسة تسمح لنا بأن نرى في هذا القصر بوضوح كل ما خفي عن عيون الناس.

تيتيل – لا شك في أن العصفورة ستكون زرقاء لأن كل شيء قد اكتسى بهذا اللون (يتلفت حواليه) يا للسموات، ما أبدع هذا الجمال الذي يتمثل في كل شيء! ...

الضياء – أنظر إلى الأطفال يتجمعون ..!

تيتيل – أهم غاضبون؟

الضياء – أبداً، وها أنت ذا تراهم يبتسمون، ولكنهم

الأطفال الزرق (يتجمعون ويزداد عددهم باستمرار) أطفال أحياء! تعالوا وانظروا إلى الأطفال الصغار الأحياء! ...

تيتيل – لماذا يسموننا الأطفال الأحياء؟

الضياء – لأنهم هم أنفسهم لم يروا نور الحياة بعد ..

تيتيل – وما شأنهم إذن؟

الضياء – أنهم ينتظرون ساعة مولدهم ....

تيتيل – ساعة مولدهم؟

الضياء – نعم – إن جميع الأطفال الذين يولدون على أرضنا يخرجون من هنا، وكل ينتظر يومه .. فإذا شاء الآباء والأمهات أن ينجبوا أطفالاً انفتحت الأبواب الكبيرة التي ترونها هناك إلى اليمين وينزل منها أولئك الصغار ..

تيتيل – ما أكثرهم! ما أكثرهم!

الضياء – إن عددهم أكثر من ذلك، فنحن لا نراهم جميعاً ... لأن هناك ثلاثين ألف بهو كهذا امتلأ رحابها بهم. تصور أن عددهم يكفي لتعمير الأرض إلى يوم القيامة! ولا يستطيع أحد أن يحصيهم.

تيتيل – ومن يكون أولئك الأشخاص الطوال الزرق، وما شأنهم؟

الضياء – لا يعرف شأنهم أحد على التحقيق .. ويظن أنهم حفظة. وقد سمعت أنهم يتنزلون إلى الأرض في أعقاب الناس ... ولكن لا يباح لنا أن نسألهم.

تيتيل – لماذا؟

الضياء – لأن ذلك سر الحياة ..

تيتيل – وهل يجوز لنا أن نتحدث إلى الآخرين، أعني الصغار؟

الضياء – بكل تأكيد، ويجب عليك أن تصادقهم .. أنظر! هاك واحداً منهم أكثر من الآخرين فضولاً، اذهب إليه وتحدث معه ....

تيتيل – وما عساي أن أقول له؟

الضياء – قل له ما تحب، كأنك تتحدث إلى زميل لك في الملعب.

تيتيل – وهل يجوز لي أن أصافحه؟

الضياء – طبعاً، فهو لا يؤذيك .. هيا ولا تظهر بمظهر الوجل الخائف .. سأتركك وحدك لتستطيع أن تتبسط معه، ثم إنني أريد أن أتحدث مع الشخص الأزرق الطويل ...

تيتيل – (يتجه نحو الطفل الأزرق ماداً له يده) كيف حالك؟ (يلمس بإصبعه رداء الطفل الأزرق) ما هذا؟

الطفل – (يلمس قبعة تيتيل عابثاً) وما هذه؟

تيتيل – هذه؟ هذه قبعتي .. أليست لك قبعة؟

الطفل – لا، وما فائدتها؟

تيتيل – إنها تتخذ لتحية الناس، فإذا أمطرت السماء أو برد الجو..

الطفل – ما معنى قولك إذا برد الجو؟

تيتيل – عندما ترتعد هكذا برررر! برررر ... أو حين تنفخ في يدك أو تفعل بذراعيك هكذا (يضرب بذراعيه فوق صدره في شدة) ...

الطفل – هل الجو بارد على الأرض؟

تيتيل – أي نعم، يبرد الجو أحياناً في الشتاء، حين تعوز المرء النار يستدفئ بها.

الطفل – ولماذا تعوز المرء النار؟

تيتيل – لأنها غالية الثمن، ثم أن شراء الخشب يقضيك نقوداً ...

الطفل – وما النقود؟

تيتيل – النقود هي التي تدفع بها ثمن ما تشتري ....

الطفل – أوه ....

تيتيل – وبعض الناس عندهم نقود، وبعضهم لا يملك منها شيئاً...

الطفل – لماذا لا يملكون منها شيئاً؟ ....

تيتيل – لأنهم ليسوا أغنياء .. هل أنت غني؟ .. وما سنك؟

الطفل – أنا على وشك أن أولد .... سيكون ذلك بعد اثنتي عشرة سنة .... أهو جميل أن يولد المرء؟

تيتيل – أي نعم! ... يا له من شيء مسل!

الطفل – وكيف مارسته؟

تيتيل – لا أذكر .... فقد حدث ذلك منذ وقت طويل! ....

الطفل – يقولون أن الأرض ممتعة وأهلها الأحياء ظرفاء!

تيتيل – أي نعم، لا بأس بها .. ففيها طيور وكعك ولعب .. وبعض الناس يملكون هذه الأشياء جميعاً، وبعضهم لا يملكون منها شيئاً، ولكنهم يستطيعون أن يتطلعوا إليها.

الطفل – يقولون أن الأمهات يقفن بالباب ينتظرن .. أنهن طيبات، ألسن كذلك؟

تيتيل – أي نعم! إنهن أحسن من في الدنيا! .. وكذلك الجدات، ولكنهن يمتن بسرعة.

الطفل – يمتن، ما معنى هذا؟

تيتيل – معناه أنهن يذهبن في أمسية من الأمسيات ولا يعدن قط.

الطفل – لماذا؟

تيتيل – من يعلم؟ ... ربما كان ذلك راجعاً إلى شعورهن بالحزن....

الطفل – هل ذهبت صاحبتك؟

تيتيل – جدتي؟

الطفل – والدتك أو جدتك لست أدري ...

تيتيل – أوه، لا يستوي أن تقول أمك أو جدتك! .... فالجدات

يذهبن أولاً. وهذا شيء محزن يحز في النفس .. فقد كانت جدتي رحيمة بي غاية الرحمة ...

الطفل – ما بال عينيك؟ .. أيصنعان اللآليء؟ ..

تيتيل – لا، ليس ما ترى لآلئ.

الطفل – فما هو إذن؟

تيتيل – لا شيء، وكل ما في الأمر أن هذا اللون الأزرق قد بهر عيني قليلاً ...

الطفل – وبماذا تسمى هذا الشيء؟

تيتيل – ماذا؟

الطفل – ذلك الشيء الذي يتساقط ....

تيتيل – إنما هو بعض الماء ...

الطفل – أهو يتساقط من العينين؟

تيتيل – نعم يتساقط منها إذا بكى المرء ...

الطفل – ماذا تعني بكلمة بكى؟ ....

تيتيل – لم أكن أبكي، وإنما يرجع السبب إلى هذا اللون الأزرق، ولو أنني كنت أبكي لما تغير الأمر.

الطفل – هل يبكي المرء في كثير من الأحيان؟ ....

تيتيل – لا يحدث ذلك للصبيان الصغار، وإنما يحدث للبنات الصغيرات. ألا تبكون هنا في عالمكم هذا؟

الطفل – لا، وأنا لا أعرف كيف يحدث البكاء؟

تيتيل – ستعرف ذلك يوماً .. ما الذي تلعب به، وما هذه الأجنحة الكبيرة الزرقاء؟

الطفل – هذه الأجنحة؟ .. إنها من أجل الاختراع الذي سأبدعه على الأرض.

تيتيل – أي اختراع؟ .. وهل استحدثت شيئاً؟

الطفل – أي نعم. أو لم تسمع به؟ سيكون من شأني عندما أنزل إلى الأرض أن اخترع شيئاً يهب السعادة ...

تيتيل – أهو طعام يؤكل؟ .. وهل يصدر عنه جلبة؟

الطفل – لا، وها أنت ذا لا تسمع شيئاً ....

تيتيل – هذا شيء مؤسف.

الطفل – إني أعمل في اختراعي كل يوم، وقد أوشكت على الانتهاء منه. أتحب أن تراه؟

تيتيل – إني متلهف على رؤيته ... أين هو؟

الطفل – أنه هناك، وتستطيع أن تراه من هنا بين ذينك العمودين .. طفل أزرق آخر (يقبل على تيتيل ويشد كمه) أتحب أن ترى اختراعي؟

تيتيل – نعم، وما هو؟

الطفل الثاني – ثلاثة وثلاثون عقاراً لإطالة العمر ... تجدها هنالك في تلك القناني الزرقاء.

طفل ثالث (يخرج من بين الجمع) سأريك ضوءاً يخفى على الناس أجمعين! (يضيء نفسه جميعاً بلهب لا عهد لأحد به) إنه لعجيب هذا اللهب، أليس كذلك؟

طفل رابع (يجذب تيتيل من ذراعه) هلم، وأنظر إلى الآلة التي صنعتها، فهي تطير في السماء كالعصفور من غير أجنحة.

طفل خامس – لا، لا، فلتنظر إلى اختراعي أولاً! فهو يكشف عن الكنوز المخبوءة في القمر! ....

الأطفال الزرق (يزدحمون حول تيتيل وميتيل ويصيحون في نفس واحد) لا، لا، هلم ولتنظراً اختراعي! لا، اختراعي أنا أجمل وأبدع! ... اختراعي أنا اختراع مدهش! ... اختراعي مصنوع من السكر! ... أما اختراعه هو فلا خير فيه! ... لقد سرق فكرته مني! ...

(اقتيد الطفلان الحيان وسط هذه الصيحات المضطربة إلى المصانع الزرقاء حيث أخذ كل مخترع يدير الآلة التي أبدعها خياله. ثم انطلقت هذه الآلات تعمل مشعة باللون اللازوردي، فدارت العجلات والأقراص، وعجلات التوازن، وعجلات الإدارة، والبكر والسيور وأدوات أخرى عجيبة لا اسم لها يعرف، وقد اكتست كلها بسحاب أزرق لا

نجده إلا في عالم الأحلام. وأخذ حشد غريب من الأدوات الميكانيكية التي لا يعرف كنهها ينطلق ويحلق تحت الأقبية أو يزحف عند قاعدة العمد، في حين شرع الأطفال يبسطون الخرائط والخطط. ويفتحون الكتب، ويكشفون عن شرائع زرق. ويجلبون أزهاراً ضخمة وثماراً هائلة يبدو أنها قد صورت من الياقوت الأزرق والفيروز)

طفل أزرق صغير – (ينوء بحمل أقحوان أزرق هائل الحجم) أنظر إلى أزهاري! ...

تيتيل – ما هذه الأزهار؟ أنا لا أعرفها ...

الطفل الأزرق الصغير .. إنها الأقحوان!

تيتيل – مستحيل! .. إنها كبيرة في حجم الموائد! ...

الطفل الأزرق الصغير .. ورائحتها ذكية جداً! ...

تيتيل (يشمها) – إنها عجيبة! الطفل الأزرق الصغير – وسيكون نموها على هذا النحو عندما أنزل إلى الأرض.

تيتيل – ومتى يحدث ذلك؟

الطفل الأزرق الصغير – بعد ثلاث وخمسين سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام.

(يصل طفلان أزرقان يحملان عنقوداً عجيباً من العنب كأنه الثريا تدلت من عمود، وكل حبة من حباته أكبر من الكمثرى)

أحد الأطفال الزرق (وقد حمل عنقود العنب) ماذا تقول في فاكهتي؟

تيتيل – عنقود من الكمثرى!

الطفل – لا، ليست بكمثري، وإنما هي عنب! ... وستكون كل حياته على هذا النحو عندما أبلغ الثلاثين، .. لقد كشفت الطريقة ..

طفل آخر (يرزح تحت حمل سلة من التفاح الأزرق في حجم البطيخ) وما رأيك في فاكهتي! .... أنظر إلى تفاحي!

تيتيل – ولكنه ليس تفاحاً! وإنما هو بطيخ! ...

الطفل – لا، لا، إنه تفاحي، وليس هو أجود ما عندي! .. وسوف يبلغ تفاحي مرتبة واحدة من الجودة عندما تكتحل عيوني بمرأى الحياة .. لقد وجدت الطريقة!

طفل آخر (يجر عربة يد محملة ببطيخ أزرق أكبر من اليقطين) ما رأيك في بطيخي الصغير؟ ..

تيتيل – ولكنه ليس بطيخاً، وإنما هو يقطين! ....

الطفل صاحب البطيخ – سيغدو هذا البطيخ فاخراً عندما أنزل إلى الأرض! ... أما أنا فسأعمل بستاناً لملك الكواكب الثلاثة.

تيتيل – ملك الكواكب الثلاثة؟

الطفل صاحب البطيخ – نعم، ذلكم الملك العظيم الذي سيهب

السعادة للأرض والمريخ والقمر خمسة وثلاثين عاماً .. تستطيع أن تراه من هنا.

تيتيل – أين هو؟

الطفل صاحب البطيخ – هنالك! إنه ذلكم الطفل الصغير الذي ينام عند قاعدة ذلك العمود.

تيتيل – على اليسار؟

الطفل صاحب البطيخ – لا، على اليمين .. أما الذي على اليسار فهو الطفل الذي يسهب للأرض السرور الخالص ...

تيتيل – كيف؟

الطفل (وهو الذي تحدث إلي تيتيل أول الأمر)، بالأفكار التي لم تطرأ على الناس بعد.

تيتيل – وذلك الطفل الآخر البدين الذي يضع أصابعه في منخريه، ماذا سيفعل؟

الطفل – هو الذي سيكشف النار التي ستبعث الدفء إلى الأرض عندما تبرد حرارة الشمس عما هي عليه الآن.

تيتيل – والطفلين اللذين يمسك كل منهما بيد صاحبه ولا ينقطعان عن تبادل القبل، أهما أخ وأخت؟

الطفل – لا، إنهما يبعثان على أشد الضحك .. هما حبيبان ..

تيتيل – وما معنى ذلك؟ ..

الطفل – لا أعرف .. فالزمن هو الذي أطلق عليهما هذا اللقب ليسخر منهما. وهما يقضيان سحابة النهار ينظر كل منهما في عيني صاحبه ويتبادلان القبل وكلمات الوداع ..

تيتيل – لماذا؟ ...

الطفل – الظاهر أنهما لا يستطيعان الفراق.

تيتيل – والطفل الصغير القرنفلي اللون الذي تبدو عليه سمات الجد والذي أخذ يرضع إبهامه، ما باله؟

الطفل – يبدو لي أنه قد قدر له أن يمحو الظلم عن وجه الأرض..

تيتيل – أوه! ..

طفل – يقولون أن هذا العمل هائل ضخم ...

تيتيل – وذلك الطفل الصغير الأحمر الشعر الذي يمشي على غير هدى، أهو أعمى؟ .

الطفل – لا، لم يصب بالعمى بعد، ولكن العمى سيدركه .. أنظر إليه جيداً؛ الظاهر أنه سوف يغزو الموت.

تيتيل – وما معنى ذلك؟ ..

الطفل – لا أعرف على التحقيق، ولكنهم يقولون أن هذا العمل شيء عظيم ...

تيتيل – (مشيراً إلى حشد من الأطفال ينامون عند قاعدة العمد، وعلى الدرج والدكك وغير ذلك) وما بال أولئك النائمين جميعاً، يا لهم من عدد كبير! .. ألا يفعلون شيئاً؟ ...

الطفل – إنهم يفكرون في شيء.

تيتيل – فيم؟ ...

الطفل – في شيء لم يتبين لهم بعد؛ ولكن لا مناص لهم من أن يحملوا معهم شيئاً إلى الأرض، ذلك أنه لا يسمح لهم بالخروج من هنا خالي الوفاض ...

تيتيل – من الذي يقول هذا القول؟ ...

الطفل – الزمن، الذي يقف بالباب. وسترى بعينيك عندما يفتح الباب .. إنه شخص متعب جداً ..

طفل – (يجري مقبلاً من خلف البهو ويشق طريقه بين الزحام) – كيف حالك يا تيتيل؟ ..

تيتيل – أهلاً! .. كيف عرفت اسمي؟ ...

الطفل – (وهو الذي أقبل وشيكاً، وقد أخذ الآن يمطر تيتيل وميتيل بقبلاته) كيف حالك؟ ... بخير؟ ... هيا قبلني، وأنت أيضاً يا ميتيل. ليس بعجيب أن أعرف اسمكما لأنني سأكون أخاكما ...

وها هم أولاء الذين أخبروني لتوهم بأنكما هنا ... لقد كنت في

الطرف الآخر من البهو استجمع أفكاري .. أبلغا والدتي أنني مستعد ...

تيتيل – ماذا؟ .. أسيرزقنا الله بك! ...

الطفل – بلا شك، وسيكون ذلك في العام القادم، يوم أحد سعف النخل ... لا تسرف في مكايدتي عندما أكون صغيراً .. أنا مسرور جداً لأنني قبلتكما قبل أن أولد .. قولا لوالدي أن يصلح المهد ... هل العيشة مريحة في منزلنا؟ ..

تيتيل – لا بأس بها ... ثم أن أمي عطوفة جداً!.

الطفل – والطعام؟ ...

تيتيل – بحسب الحال ... بل يكون عندنا كعك أحياناً، أليس كذلك يا ميتيل؟

ميتيل – إن أمي تصنع الكعك في عيد رأس السنة، وفي الرابع عشر من يوليه ...

تيتيل – وما الذي تخبئه في كيسك؟ ... هل ستحمل لنا شيئاً؟

الطفل – نعم سأجلب لكم ثلاثة أمراض: الحمى والقرمزية، والسعال الديكي، والحصبة ...

تيتيل – أوه؛ أهذا هو كل ما تحمله؟ أليس كذلك؟ .. ولكن، ما شأنك بعد؟

الطفل – بعد ذلك؟ سأترككم.

تيتيل – لا يكاد ذلك يساوي عناء قدومك.

الطفل – ليس لنا في الأمر خيار! ..

(وفي تلك اللحظة نطلق في الجو شيء أشبه بذبذبة متصلة قوية صافية أخذت تعلو وتشتد، وبدا أن هذه الذبذبة قد انبعثت من العمد والأبواب المتلألئة التي أشرقت بلون أزهى وأبهى)

تيتيل – ما هذا؟

الطفل – إنه الزمن! وقد تأهب لفتح الأبواب!

(ويطرأ تغيير كبير على ذلك الحشد من الأطفال الزرق. فقد ترك معظمهم أدواته وعمله، واستيقظ فوج من النوام. ويتجه الجميع بأبصارهم إلى الأبواب المتلألئة ويدنون منها)

الضياء (منضماً إلى تيتيل) دعنا نحاول الاختباء وراء العمد .. وسوف لا يفلح الزمن في الاهتداء إلينا ..

تيتيل – ما مصدر هذه الجلبة؟

طفل – إنه الفجر يشرق بنوره، وهذه هي الساعة التي ينزل فيها إلى الأرض الأطفال الذين يولدون اليوم ...

تيتيل – وكيف ينزلون؟ .. أثمة سلالم؟ ...

الطفل – سترى .. وها هو ذا الزمن يفتح مزاليج الأبواب ...

تيتيل – ومن يكون الزمن؟

الطفل – إنه رجل عجوز سيدعو أولئك الذين سيشرعون ..

تيتيل – أشرير هو؟

الطفل – لا؛ ولكنه أصم لا يسمع شيئاً .. يتوسل إليه الأطفال ما شاءوا فلا يسمح بمغادرة هذه المملكة إلا لمن دنت ساعته منهم، أما الباقون الذين يحاولون الخروج فإنه يدفع بهم إلى الوراء ...

تيتيل – وهل يسر الذين يرحلون من هنا؟ ..

الطفل – إنا لنأسف إذا بقينا، ولكننا نحزن إذا ذهبنا .. أنظر! .. أنظر! .. ها هو ذا يفتح الأبواب! ..

(تدور الأبواب الكبيرة ببطء على محاورها. وتسمع الأصوات منبعثة من الأرض كأنها نغم بعيد. وينفذ إلى البهو ضياء أحمر وأخضر ويبدو الزمن على العتبة شيخاً طويلاً مسترسل اللحية قد تزود بمنجل وساعة رملية. ويرى المشاهد أطراف شرع بيضاء وذهبية لسفينة راسية على ما يشبه الرصيف ،وقد صورت من خيوط الفجر الوردية)

الزمن (واقفاً على العتبة) هل استعد أولئك الذين حانت ساعتهم؟

الأطفال الزرق (يشقون طريقهم مهرولين من كل حدب وصوب) ها نحن أولاء! .. ها نحن أولاء! .. ها نحن أولاء! ..

الزمن (موجهاً القول في صوت أجش إلى الأطفال الذين تتابعوا أمامه للخروج) واحداً فواحداً! .. إن عددكم أكبر من العدد المطلوب! .. وها أنتم أولاء قد عدتم إلى شأنكم القديم! .. ولكنكم لا تستطيعون خداعي!

.. (يدفع طفلاً إلى الوراء) لم يأت دورك بعد! .. عد إلى مكانك وانتظر إلى الغد. وأنت أيضاً، عد إلى شأنك، وسيأتي دورك بعد عشر سنين .. ها هو ذا الطفل الثالث عشر؟ ولكن العدد المطلوب هو اثنا عشر طفلاً فقط، وليس ثمة داع إلى الزيادة؛ لقد انقضت أيام ثيوقريطوس وفرجيل .. عدد أكبر من الأطباء؟ لا، فقد زاد عددهم حتى أربى على الحاجة، وهم يشكون من هذه الزيادة على الأرض .. ولكن، أين المهندسون؟ إن القوم يريدون رجلاً منهم أميناً، واحداً فقط يتخذونه أنموذجاً. أين المهندس الأمين؟ أنت؟ (يومئ الطفل برأسه أن نعم) يبدو لي أنك أنموذج حقير! هيا .. أنت يا من تهرول هناك رويدك رويدك. وأنت، ما الذي ستحمله معك؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق، أو تذهب خالي الوفاض؟ لا تستطيع إذن أن تمر من الباب .. تزود بشيء، وليكن جريمة من الجرائم الكبيرة، أو مرضاً من الأمراض اللطيفة فالأمر يستوي عندي .. ولكن يجب أن تتزود بشيء (يقع نظره على طفل يدفعه الأطفال الآخرون إلى الأمام دفعاً، وهو يقاومهم بكل ما أوتى من قوة) حسناً، ما خطبك؟ أنت تعلم أن الساعة قد دنت .. والقوم يريدون بطلاً يحارب الظلم، أأنت البطل، هيا إذن ..

الأطفال الزرق – إنه لا يريد أن يبرح ..

الزمن – ماذا؟ لا يريد أن يبرح؟ .. ماذا يظن في نفسه هذا الشيطان الصغير؟ لا اعتراض هنا، وليس لدينا وقت نضيعه ...

الطفل (هو الذي يدفعه الأطفال الآخرون) لا، لا! .. لا أريد أن أبرح! .. ولا أحب أن أولد! .. أود أن أبقى هنا! ..

الزمن – ليست هذه هي المسألة. فعندما تحين الساعة، فلا مرد لها! هيا إذن تقدم، أسرع!

طفل (يخطو إلى الأمام) أوه، دعني أمر! .. سأحل محله! .. إنهم يقولون أن والدي قد تقدم بهما العمر وهما ينتظراني منذ أمد طويل! ..

الزمن – لن يسمح بشيء من ذلك قط! .. وستخرج عندما تحين ساعتك .. عندما يأتي دورك .. وسيكون مصيرنا إلى الهلاك إذا استمعنا إليكم .. واحد يريد الذهاب والآخر يرفض. طفل يتعجل وقته وطفل يستأخر ساعته .. (يدفع بعض الأطفال إلى الوراء، وكانوا قد تزاحموا على العتبة) لا، لا، لم تدن ساعتكم بعد أيها الأطفال! ... إلى الوراء أيها الأطفال الفضوليون! ولا شأن في خارج هذا العالم لأولئك الذين لم تحن ساعة خروجهم ... أنتم تستعجلون الآن. فإذا جاء وقتكم فزعتم وارتددتم على أعقابكم ... أنظروا! ها كم أربعة أطفال يرتجفون كأوراق الشجر .... (يخاطب طفلاً هم باجتياز العتبة ثم ارتد فجأة) حسناً، ما الذي جري؟ .. ما خطبك؟ ...

الطفل – لقد نسيت الصندوق الذي احتفظت فيه بالجريمتين اللتين ستقترفهما يداي ..

طفل آخر – أما أنا فقد نسيت الوعاء الذي ضم فكرتي في تنوير أذهان الجماهير ..

طفل ثالث – لقد نسيت طعم أبدع ما عندي من الكمثرى! ...

الزمن – هيا أسرعوا وابحثوا عن أشيائكم! .. فلم يبق لنا إلا ستمائة واثنتا عشرة ثانية فقط .. لقد أخذت سفينة الفجر ترفرف بشراعها علامة على الانتظار .. سوف تتأخرون فلا يحبون أن تولدوا! .. هيا أسرعوا ولتمتطوا ظهر السفينة (يقبض على طفل يحاول أن ينفذ من بين رجليه ليبلغ الرصيف) أوه، لا، ليس هذا دورك! .. وهذه هي ثالث مرة تحاول فيها أن تولد قبل أوانك .. لا تعد إلى هذا الفعل. وإذا قبضت عليك متلبساً مرة أخرى فستبقى دائماً مع أختي "الأبدية" وأنت تعلم أن الحياة معها خالية من المتعة وأسباب التسلية! .. هلموا، هل نحن جميعاً مستعدون؟ ... وهل وقف كل منكم في مكانه؟. (يستعرض الأطفال الذين وقفوا على الرصيف أو جلسوا في السفينة) ما زال ينقصكم طفل واحد .. ولا جدوى من اختبائه فإني أراه بين الجمع .. هيا يا هذا. فأنت لا تستطيع أن تخدعني! هيا يا هذا، هيا يا صاحبي الصغير الذي يعرفونك باسم المحب، ودع حبيبتك ...

(يتعانق الطفلان اللذان عرفا بالمحبين في شغف، وقد اكتأب وجهاهما يأساً وغماً، ثم يشخصان إلى الزمن ويجثوان عند أقدامه)

الطفل – مولاي الزمن، اسمح لي بالبقاء معها!

الطفلة – مولاي الزمن، دعني أذهب معه!

الزمن – مستحيل! .. لم يبق لنا من الوقت إلا ثلاثمائة وأربع وتسعون ثانية.

الطفل – ليتني لا أنزل إلى الدنيا! ...

الزمن – لا خيار لك ...

الطفلة – (متوسلة) مولاي الزمن، سوف أولد بعد فوات الوقت!...

الطفل – أما أنا فسأقضي قبل أن تنزل هي إلى الأرض! ..

الطفلة – لن أراه ثانية! ..

الطفل – سيظل كل منا وحيداً في العالم! ..

الزمن – ليس هذا من شأني .. ولتتوجها بتوسلاتكما إلى الحياة .. فأنا أفعل ما أؤمر: أجمع شمل أناس وأفرق غيرهم (يقبض على طفل من الأطفال) هيا! ...

الطفل (يقاوم ويناضل) لا، لا، لا! فلتأت هي معي أيضاً! ..

الطفلة (تتعلق بثوب الطفل) دعه يبقى معي! .. دعه لي! ..

الزمن – هيا، هيا، إنه مقبل على الحياة لا على الموت! .. (يجر الطفل بعيداً عنها) هيا! ..

الطفلة – (تبسط ذراعيها للطفل الذي أبعد عنها وقد استبد بها الغضب) أعطني علامة! .. أعطني علامة! .. قل لي كيف أهتدي إليك؟

الطفل – سأحبك دائماً! ..

الطفلة – سأكون أشد أهل الأرض حزناً! .. وسوف تعرفني بذلك!.. (تسقط وتظل ممدة)

الزمن – أجمل بك أن تتعلقي بالأمل .. والآن، قد انتهى كل شيء (ينظر في ساعته الرملية) لم يبق إلا ثلاث وستون ثانية فقط ..

(يحدث أخيراً بين الأطفال النازحين والباقين هرج ومرج، ويتبادلون كلمات الوداع)

الأطفال الزرق – مع السلامة يا بيبر! ... إلى اللقاء يا جان! هل تزودتم جميعاً بما تحتاجون إليه؟ .. فلتذيعوا فكرتي! .. هل حملتم معكم اللولب الخاص بي؟. لا تنسوا أن تتحدثوا عن بطيخاتي! .. هل نسيتم شيئاً! .. حاولوا أن تتعرفوا علي ثانية! .. سأهتدي إليكم! .. لا تبددوا أفكاركم! .. لا تميلوا بأجسامكم كثيراً في الفضاء! .. أبعثوا إلينا بأخباركم! .. صحيح إنهم يقولون أنكم لا تستطيعون ذلك، ولكن حاولوا، حاولوا! .. اجتهدوا أن تبعثوا إلينا بأنباء عن الحياة على الأرض، أهي جميلة! .. سآتي لأقابلكم! .. سأولد على عرش!..

الزمن (يهز مفاتيحه ومنجله) كفى! كفى! لقد رفعت المرساة! .. (تمر شرع السفينة وتختفي. وتسمع أصوات الأطفال في السفينة عن بعد! "الأرض! الأرض!! .. أستطيع أن أراها! .. ما أجملها! .. ما أروع سناها! .. ما أكبرها!" ثم تنبعث من أقصى الآفاق أغنية تنبض بالفرح والشوق فيخيل للسامع أنها آتية من أعماق الهاوية)

تيتيل (مخاطباً الضياء) ماذا أسمع؟ .. أظن أن هذا الصوت لا يصدر عنهم، وكأني به صوت أناس آخرين.

الضياء – نعم، إنها أغنية الأمهات وقد خرجن للقاء أطفالهن ..

(ويغلق الزمن في نفس الوقت الأبواب المتلألئة. ثم يلتفت ليلقي نظرة أخيرة على البهو، فيصادف فجأة تيتيل وميتيل والضياء)

الزمن (وقد تملكته الحيرة واستبد به الغضب) ما هذا؟ وما الذي تفعلونه هنا؟ ومن أنتم؟ .. ولماذا لا تصطبغون باللون الأزرق؟ وكيف دخلتم؟ ...

(يتقدم نحوهم مهدداً إياهم بمنجله)

الضياء (مخاطباً تيتيل) لا تجبه! العصفورة الزرقاء معي .. وقد خبأتها تحت معطفي .. علينا بالهرب .. أدر الماسة يضل أثرنا ..

(يتسللون من اليسار بين الأعمدة القائمة في صدر المكان)

يرتد تيتيل وميتيل والحيوانات والأشياء جميعاً إلى حيث كانوا قبل أن تسحرهم الجنية. ويستيقظ الطفلان ويقصان نبأ مغامراتهما على أبيهما وأمهما فلا يفهمان. ويعترف تيتيل للمرأة العجوز التي تشبه الجنية بأنه لم يوفق إلى العثور على العصفورة الزرقاء. ويهب تيتيل قمريته الحنون لطفل مريض كان يتلهف شوقاً إلى الحصول عليها منذ أمد بعيد. فلما تناولها من مكانها على الجدار ونزل، ثم وضعها في قفصه صاح قائلاً "يا للعجب إنها زرقاء!"

إنقاذاً للأرواح

للكاتب الإيطالي/ روبرتو براكو

همت الأخت فيلو مينا بالاعتراف أمام القسيس الموكل به. وهمست مرتعشة الشفتين في صوت ينم عن المذلة والانكسار: "أبتاه، لا أستطيع أن اجزم بأنني أذنبت، على أن ضميري يوحي إلي حيناً بأنني أذنبت، وحينا بأنني لم أذنب، فإذا أوحى إلي بأنني بريئة، يكون عذابي أكبر مما إذا أوحى إلي بأنني مذنبة".

ولم يفهم القسيس الموكل بالاعتراف ما تقصد إليه فقال لها: "يا ابنتي، أفصحي عن مكنون سرك، ولا تكتمي عني شيئاً، فأنت بعد في مقتبل العمر، وضمير الإنسان في الثامنة عشرة لا يؤبه له ولا يعول عليه. دعيني أحكم في أمرك وأسأل الله أن ينير لي الطريق، تكلمي .."، "إذن، استمع إلي يا أبت، وهاك قصتي على حقيقتها. في منتصف ليلة الاثنين الماضي كنت أعمل بالمستشفى نيابة عن الأخت ماري، وكان رقم ٧ بالعنبر رقم ٥ يتلقى العزاء والبركة التي يفيئها الدين على كل من أوشكت روحه أن تذهب إلى بارئها. ذلك أن الطبيب المعالج يئس من شفائه وأسر إلي بأن عذابه لن يطول، وأن الموت سوف يخترمه قبل أن يبزغ نور الفجر. وأضاف الطبيب قائلاً: لست أتوقع أن تكثر النوبات التي تزيد في علته، غير أنك إذا شعرت بأن الحاجة ماسة إلي فاستدعني بلا

تردد ولا إبطاء. أما سائر المرضى فليسوا في حاجة إلى عناية خاصة. ولا أعتقد أنهم سيكونون مصدر مشقة أو تعب لك أو لي. ثم ذهب ليأخذ قسطه من الراحة والنوم.

لم يبق لي من عمل إلا إعطاء رقم ٧ الميئوس من شفائه جرعة من الدواء كل نصف ساعة. فأخذت مكاني المعتاد إلى جانب فراشه، وبدأت أصلي لهذه الروح المشرفة على الزوال"

"روح من؟"

"روح هذا الرجل التعس الذي كان يعاني المرض"

"إذن، كان رجلاً؟"

"ألم أقل ذلك يا أبت؟"

"لقد تحدثت عن رقم ٧، ورقم ٧ إذا لم أك مخطئاً، لا يمكن أن يدل على جنس بعينه. ومع ذلك فيستوي أن يكون رجلاً أو امرأة. اتممي حديثك"

"كانت الساعة قد أشرفت على الثالثة بعد منتصف الليل، وإذا بي أسمع صوتاً ضعيفاً ينبعث من هذا المريض:

"أيتها الأخت فيلومينا، لقد دنا الأجل" وكان المريض قد أخلد إلى السكون منذ أن انتصف الليل، فهمست في أذنه "تشجع يا أخي تشجع"

ثم أخذ ينبس شيئاً فشيئاً بهذه الكلمات في صوت جلي واضح:

"إنني على استعداد. أليس من المحزن أن يموت المرء في سن الخامسة والعشرين، ولكني مستسلم لقضاء الله، ولعل هذا أجدر بي. لقد عشت فقيراً وحيداً، كنت شاعراً، أي أنني لم أك شيئاً مذكوراً. إني لأحس بأنني كنت محبوباً، ولكن لم يك ثمة أحد يحبني. ولو لم تكوني إلى جانبي الآن لمت ميتة رجل ضال تكتنفه الصحراء من كل جانب"

ثم أخلد إلى السكون فأعدت عليه كلماتي "تشجع يا أخي، إن الله معك"

وما انقضى على ذلك بضع دقائق حتى رأيت عينيه الزرقاوين مغرورقين بالدموع

"هلا أديت لي خدمة أيتها الأخت فيلومينا؟"

"بكل تأكيد يا أخي، إذا كان في مقدوري أن أؤديها"

ثم أردف قائلاً: "ألا تحبين أن أموت في سلام؟ ألا تودين أن أودع الحياة شاكراً ربي الذي خلقني؟"

فأجبته "كل مسيحي طيب يجب أن يموت شاكراً ربه"

"إن إجابتك حسنة يا أختي"

ثم قال المريض المشرف على الموت "ساعديني على أداء هذا الواجب"

"وكيف أساعدك يا أخي"

"ساعديني على عبور عتبة هذه الحياة الدنيا من غير أن أشعر بمرارة الفراق. دعيني أحمل إلى الآخرة ذكرى عمل من أعمال الشفقة والرحمة أيتها الأخت فيلومينا، ارحمي رجلاً فانياً يسير نحو الموت – امنحيني – امنحيني قبلة".

فقاطعها القسيس مستفسراً "قبلة؟"

ولم يسعني إلا أن أعيد على مسامعه ما سبق أن قلته "تشجع يا أخي، وهيئ نفسك لقبلة الرب"

"ما أحسن قولك يا أختي"

على أنه أخذ يستعطفني مبهور الأنفاس "اعملي في هذا المعروف، ألا تعلمين أيتها الأخت فيلومينا أن عملك هذا سيكون فيه خلاصي؟ أتحبين أو يؤنبك ضميرك إلى الأبد؟ أتودين أن تذهب نفسي هباء؟ أتكونين مصدر عذابي وشقوتي؟"

فقال القسيس: "وماذا كان من أمرك؟"

"روعتني هذه الكلمات يا أبت، وتدبرت قوله فأيقنت أن الموت إذاً نزل بالهموم المكروب فقد يؤدي إلى عذاب نفسه عذاباً أبدياً. وقد يدركني هذا العذاب أيضاً إذا كنت أنا السبب في همه وكربه. ورأيت أن كل دقيقة تمر تدني هذا المريض من الموت الذي هو مدركه قبل أن يطل الفجر بنوره. وكنت أسمع في هذه الغرفة الهادئة الساكنة أنفاسه المبهورة لأن عدد المرضى في العنبر كان قليلاً، وكانوا قد استسلموا

جميعاً للنوم في أمن وسلام. كان الضوء خافتاً، وبدت الأسرة في هذا الضوء كالقبور. انتابني هم شديد فلم أتمالك نفسي وانحنيت وقبلته. فهمس في ضعف شديد وصوت لم أكد أتبينه: شكراً شكراً، ثم أخذت أصلي وأصلي"

وحاول القسيس بصوته الهادئ أن يخفي ما شعر به من قلق وما استولى عليه من حيرة بلبلت عليه حكمه، فبادرها بقوله: "أين طبعت قبلتك منه؟"

"لقد كان الظلام شاملاً يا أبت ولكني أظن أنني قبلته في فمه"

"في فمه؟ ماذا أسمع؟ يا للوقاحة ويا للجرأة والاستهتار؟ إني لأدرك يا ابنتي أنك قد فعلت ما فعلت بدافع الشفقة المسيحية، وهذا عمل جليل نبيل، ولكنه خاطئ، بل هو عمل محفوف بالخطر. كان من الأصوب أن تكون قبلتك على جبينيه لا على فمه، وفي هذا كل الكفاية لإنقاذ روحه. ومع ذلك فإني أرى أنك قبلت رجلاً كان في حكم الأموات"

"وهذا هو ما قلته أنا أيضاً"

"أما وقد مات وغيب في القبر فليرقد في سلام ولننصرف عن التفكير في أمره"

"ولكن الأمر مخالف لما تقول يا أبت، فهو لا يزال حياً يرزق"

"حياً!!"

"نعم. فقد ظل في غشية الموت حتى الفجر، وما أن أرسلت

الشمس أول خيوطها الذهبية حتى أدركته رحمة الله. ودخل الطبيب من باب العنبر فرأى وجه المريض مشرقاً بابتسامة خفيفة فتملكته الدهشة، وبادر إلى بحث حالته بحثاً دقيقاً، ثم حقنه تحت الجلد، وهمس قائلاً: "يا للعجب، أغلب ظني أننا سنتغلب على مرضه!"

فقال القسيس وقد بدت على وجهه أمارات اليأس والقنوط "هذه كارثة من الكوارث"

"ماذا تقول يا أبت؟!"

"هذا أمر خطير يا ابنتي، وها أنا ذا حيران لا أهتدي إلى حكم في حالتك، ذلك أنك قبلت رجلاً من شفتيه، ولا يزال هذا الرجل حياً يرزق. وقد كان الخطب أيسر عندما كان هذا الرجل مشرفاً على الموت، أما الآن فلنقل بصراحة أن الأمر قد تعقد"

وتوقف القسيس فترة عن الكلام ثم سأل فيلومينا قائلاً: "أي صنف من الناس هذا الطبيب؟"

"إنه رجل طيب السيرة"

"أقصد منزلته بين الأطباء؟"

"إنه من أحسنهم"

"وكيف حال المريض اليوم؟"

"أحسن حالاً"

"لقد ضعت يا ابنتي"

"آه يا إلهي!"

"أما زلت تجسرين على ذكر اسمه؟"

"إني مخطئة تعسة يا أبت"

وعندئذ أجهشت الأخت فيلومينا بالبكاء، فخفف القسيس من لهجته القاسية وقال: "على أنني لم أتبين طريقي بعد. لقد ذكرت لي أن ضميرك إذا أوحى إليك بأنك بريئة يكون عذابك أكبر مما إذا أوحى إليك بأنك مذنبة. فما هذا التناقض؟ وكيف يتيسر لي أن أدرك كهنه؟"

"وأنا أيضاً لا أدري يا أبت، وإني لأعترف لك بما يخالجني من شعور صحيح"

"ألا تندمين الآن على قبلتك؟"

"إذا كنت قد أخطأت، فيجب علي أن أندم وأتوب"

"لا يذهبن بك الظن إلى أنني سأمنحك الغفران لتوي. ولنتمهل بضعة أيام، فمن يدري؟ ولننتظر ما سوف يؤول إليه مرض هذا الشاب، ثم نتصرف على ضوء ما يحدث. ولتذهبي الآن إلى حال سبيلك، لأنني لست راغباً في أن أسمع منك أكثر مما سمعت. ولتظهري خجلك واستحياءك إذا اقتربت من فراشه. أفهمت؟".

"إنني أظهر دائماً خجلي يا أبت"

"حسناً، حسناً"

وبعد أيام قلائل عادت الأخت إلى القسيس الموكل بالاعتراف، فسألها:

"إيه يا ابنتي، كيف حال رقم ٧؟"

"أظن أنه قد تحسن كثيراً"

"وما رأي الأطباء في ذلك؟"

"يقولون أنه سوف يبرأ"

"ليس ثمة أي أمل في إنقاذك"

"وهذا هو ما قلته للمريض"

"وماذا قلت له؟"

"قلت له إنني قد هلكت بسببه، ولو إنني كنت أعلم أنه سيبرأ لما قبلته".

"وبماذا أجابك هذا الشاعر المملوء صحة وعافية؟"

"أجابني بأنه لا يود هلاكي، ولسوف يعمل على خلاص روحي؟"

"كان في مقدوره أن يخلص روحك بموته"

"أجل يا أبت، فلقد أقسم بأنه سيقتل نفسه لتخليصي بمجرد أن يستعيد عافيته"

"وهذا تعقيد جديد للمسألة" ثم أخذ القسيس يتدبر الأمر بضع لحظات، ثم قال وقد بدت عليه أمارات الاستسلام والعزم في آن واحد:

"إني لأرى من الأصوب أن نمنحك الغفران. ذلك أن هذا الرجل لو هم بوضع حد لحياته لتعين علينا أن نبدأ في حل المشكلة من جديد!"

أوبرا عايدة

للأثري/ ماربيت باشا

ألفها ماربيت باشا نزولاً على رغبة الخديو إسماعيل باشا ولحنها الموسيقار العالمي الإيطالي فردي، وكانت من أوائل الأوبرات التي مثلت على دار الأوبرا المصرية في عهد هذا الخديوي.

أعلن أمونا سرو ملك الحبشة الحرب على مصر في عهد فرعون من فراعينها العظام، وأغار بجيوشه على أراضيها، ولكن الهزيمة حلت بالأحباش على الرغم من شجاعتهم واستبسالهم في القتال، ذلك أن الجيش المصري كان آنئذ في ذروة مجده قد انعقد النصر بألويته أينما ذهب وحيثما سار.

وتوالت الهزائم على أمونا سرو إلا أن أسر الجيش المصري المظفر لابنته عايدة كان أشد هذه الهزائم وقعاً في نفسه.

وعامل المصريون الأمير الأسير معاملة طيبة كريمة، فقد فتنتهم بجمالها الباهر وأسرت قلوبهم بوداعتها ورقتها. وعندما بلغت عاصمة البلاد منفيس قدمها فرعون مصر هدية إلى ابنته أمتريس لتتخذها جارية لها. وأبت الأميرة المصرية النبيلة أن تعامل عايدة معاملة سائر الجواري بل حدبت عليها حدب الأخت وشملتها بعطفها ورعايتها، فخفف ذلك عنها ألم الأسر وهون عليها مصيبتها، إلا أن مرارة الهزيمة التي عانتها

بلادها وبعدها عن أهلها ووطنها كان ينغص عليها حياتها. وشاءت المقادير أن تزيد في هموم هذه الأميرة الحبشية فرمتها بحب عنيف غزا قلبها البكر وتملك منه، فتبلل خاطرها وانشغل بالها.

كان ردامیس ضابطاً في حرس فرعون، جميل المحيا، موقور الشباب كريم النسب رفيع المقام، يتردد على بلاط فرعون، فوقع بصره على الأميرة عايدة الوديعة الرقيقة فشغف بها حباً وتدله في غرامها، وبادلته الأميرة حباً بحب. غير أنها شعرت في أول الأمر بشيء من تأنيب الضمير، لأنها عشقت عدواً من أعداء بلادها الألداء، ولكن سلطان الغرام وسورته تملكاً من قلبها فأسلمت لحبيبها الجميل قيادها.

وحاول المحبان أن يتكتما هذه العاطفة المشبوبة، فعجزاً عن ذلك، لأن الحب فضاح تنم عنه العيون. ومما زاد في تعقيد المواقف وتحرجه أن الأميرة المصرية أمتريس وقعت أيضاً في حب هذا الضابط النبيل، وكانت لا تطيق أن ترى منافسة لها في حبها لشدة كبريائها وطبيعتها الحساسة. وقد جاهدت نفسها مجاهدة شديدة للخلاص من هذا الحب فلم تستطع له دفعاً. وفطن ردامیس لما تكنه أمتريس له من حب، فأبى عليه نبله أن يقتل هذه العاطفة وإن كان لا يبادلها إياها.

وأحست أمتريس من برود ردامیس أن في الأمر شيئاً، فهدتها غيرتها إلى أنه يحب الأميرة الحبشية الأسيرة، ولكنها لم تستسلم لليأس وزاد حبها اضطراماً فصحت نيتها على أن تنال مرادها مهما كانت الظروف والأحوال.

وتجددت الحرب بين مصر والحبشة. فقد حشد ملك الأحباش جيشاً لجبا أغار به على طيبة، وأعد المصريون للقائه جيشاً عرمرما. وطلب أولو الأمر من كهنة إزيس أن يستخيروها فيمن تشير به لتولي قيادة هذا الجيش. ثم أعلن الكهنة في يوم من الأيام أن مشيئة الإلهة قد اقتضت أن يكون رداميس على رأس الجيش المصري الذي سيقاتل العدو. وعندئذ جمع فرعون أصحاب رأيه ورجال بلاطه وأعلن نزوله على مشيئة إزيس.

وفاض قلب رداميس بالسعادة لنيل بغيته التي كان يهفو إليها من كل قلبه، وانطلق يؤدي صلاة الشكر والعرفان للإلهة إيزيس التي شرفته وأعلت من قدره. وما أن سمعت جموع الشعب بهذا الاختيار حتى استخفها الفرح، لأن الناس كانوا يحبون رداميس حباً جماً على الرغم من حداثة سنه.

وتقدمت الأميرة أمتريس ووضعت العلم المصري بين يدي رداميس، وطلبت منه في صوت يفيض بالتأثر أن يسلك به سبيل النصر والمجد. وامتلأ قلبها بالنشوة لما ناله حبيبها من ثقة وتشريف، وتطلعت إلى اليوم الذي يعود فيه مكللاً بأكاليل النصر والظفر فيكافئه فرعون بتقديم يد ابنته إليه جزاء له على ما ناله الوطن على يديه من عزة وسؤدد.

أما عايدة فقد أفعم اليأس قلبها، وتسللت إلى غرفتها تبكي وتنتحب، فقد عز عليها أن تشارك القوم ابتهالهم بأن تحل الهزيمة بوطنها المحبوب، وحز في نفسها أن يرميها القدر القاسي بحب عدو لدود من أعداء بلادها.

وفي خلال ذلك أقيم حفل ديني كبير في معبد بتاح إله الحرب، وخلع الكاهن الأعظم رامفيس على رداميس الشارة المقدسة الدالة على منصبه الجديد، وأخذ الجميع يدعون له بالنصر.

واستجابت الآلهة لدعوات الناس وصلواتهم، فهزم الجيش المصري الأحباش في كل مكان ومزقهم شر ممزق، ودخل رداميس منف دخول الأبطال الظافرين يجرجر في أذياله صفاً طويلاً من الأسرى.

ولم يفطن أحد إلى أن أمونا سرو ملك الحبشة كان من بين هؤلاء المأسورين، فقد خرج للقتال متنكراً في زي ضابط فخفي أمره على الناس. وأذل الأسر كبرياء الملك، ولكنه استسلم للواقع، وسار مع الأسرى إلى منف معللاً النفس بالعثور على ابنته والكشف عن خطط أعدائه.

واستعد القوم استعداداً كبيراً للاحتفاء برداميس في اليوم الذي حدده لدخول منف، وأمرت أمنريس جواريها بأن ينشدن الأناشيد في تحيته وتمجيده، وارتدت هي أجمل الملابس، وتزينت بأنفس الحلي والجواهر، واستخفها الفرح والسرور لأنها كانت تعلم حق العلم أن فرعون سيزوجها من القائد المظفر جزاء له على حسن بلائه في حرب الأحباش ودفع شرهم عن مصر، وراحت تحلم بلقاء الحبيب، وبلوغ أعز أمنية لها في الحياة.

ولكن عايدة دخلت عليها في ذلك الوقت مفطورة القلب كسيرة الفؤاد قد برح بها الحزن لما لاقاه شعبها من مرارة الهزيمة، فانقبضت نفس أمنريس واشتعلت فيها نيران الغيرة التي كانت قد سكنت في غياب

البطل راميس. وأرادت أن تمتحن غريمتها فأوهمتها بأن راميس قد قتل في هذه الحرب، ففاضت شجون عايدة وأرسلت العبرات، فأحست أمنريس بأنها ما زالت مقيمة على حبه.

ولم تكتف أمنريس بهذا الدليل، ودفعتها وساوس المحبين إلى زيادة الاستيثاق. فأخبرت عايدة بأن راميس لم يقتل وأنها كانت تمازحها عندما أبلغتها هذا الخبر المشئوم فتهلك أسارير عايدة وطربت أيما طرب، فأيقنت الأميرة المصرية أن غريمتها ما زالت متدهلة في حب راميس.

وتعالت الأصوات منبئة بأن الاحتفال قد أوشك وحان حينه، فخرجت أمنريس من غرفتها لتصحب والدها فرعون وتجلس معه على العرش الذي أقيم على أبواب المدينة التي تقرر أن يمر بها موكب القائد المنتصر، وأمرت عايدة سائر جواريها بأن، يتبعنها.

استقبل فرعون راميس بأجمل عبارات التحية والترحيب، وأثنى أطيب الثناء على الأعمال الباهرة التي تمت على يديه. وما أن ركع القائد الشاب أمام عرش فرعون حتى تقدمت الأميرة ووضعت بيدها تاج النصر على رأسه حادبة حانية، وقد فاض وجهها بأبلغ آيات المحبة والتقدير والإعزاز.

وأحب الملك أن يستعرض أسرى الحرب، فمروا أمامه واحداً بعد واحد، وما أن لمحت عايدة أحدهم حتى ندت منها صرخة امتزج فيها الفرح بالدهشة، واندفعت إلى أحضان والدها تغمر وجهه بقبلات الفرح والشوق. وهمس أمونا سرو في أذنها ألا تكشف مره، وتجمع الناس حوله فأفصح لهم بأنه ضابط حبشي بسيط وقع في أسر الجيش المصري، فصدقوه.

وطلب فرعون من رداميس أن يتمنى عليه، فرد عليه القائد النبيل الذي برئ قلبه الكبير من قسوة المحاربين بأن له أمنية واحدة هي أن يتفضل فرعون بإطلاق سراح جميع الأسرى. فأجاب الملك سؤله واستثنى والد عايدة، ذلك أن الكاهن الأعظم تمسك بالاحتفاظ به رهينة. ثم أخذ فرعون بيد ابنته وقدمها إلى رداميس معلناً للملأ أنه رأى أن يزوجها للقائد مكافأة له على تخليص البلاد من شر الأعداء.

وتملكت أمنريس نشوة الفرح، ذلك أنها حققت أعز أمانيها وعادت لا تخشى منافسة عايدة. أما رداميس فقد امتلأ قلبه بالحزن والغم لأنه كان قد عقد العزم على ألا يتزوج إلا من حبيبة فؤاده عايدة، فقد شحذ حبها من عزيمته وأعانه على إحراز كل هذا النصر. واستسلمت عايدة لليأس لأنها فقدت بهذا الزواج كل أمل لها في الحياة، ولم يبق أمامها إلا الموت. وتحرج موقف رداميس، ولم يجد بداً من التظاهر بالرضا لعله يجد بعد ذلك مخرجاً يخلصه من هذه الورطة.

وظل رداميس يرى عايدة في القصر من حين إلى حين، ولكن الظروف لم تهيئ له فرصة الاختلاء بها. وأخذ يجاهد في سبيل ذلك، وكاد اليأس يدب إلى قلبه، غير أنه نجح آخر الأمر في تدبير موعد يلتقي فيه بها سراً خارج معبد إيزيس في الليلة السابقة على اليوم الذي تحدد لزفاف أمنريس إليه.

وكان أمونا سرو ملك الحبشة يقيم هو الآخر في قصر فرعون، وما لبث أن عرف بحب ابنته لرداميس، وسمع في الوقت نفسه من الجنود

الذين كانوا يحرسونه أن جيوش الحبشة المتشتتة قد اجتمع شملها وتأهبت للإغارة على مصر. فرأى بثاقب فكره أن يستغل هذا الحب في تبين خطط المصريين. واتفق له أن علم بالموعد الذي ضربه رداميس للقاء عايدة سراً، فأعد عدته للهرب من القصر في الليلة نفسها والذهاب إلى معبد إيزيس.

وحدث أن عزمت الأميرة المصرية أمنريس أن تزور معبد إيزيس في هذه الليلة التي تودع فيها حياة العذارى لتصلي للآلهة وتحرق في محرابها البخور جرياً على التقاليد المصرية القديمة. وذهبت الأميرة فعلاً إلى المعبد ومعها حراسها، فبلغته بعد الغسق بقليل، واصطحبها كبير الكهنة رامفيس إلى داخل المعبد، ثم شرعت في صلاتها الليلية.

وما أن استقرت أمنريس وحاشيتها في المعقد حتى اقتربت عايدة منه وهي ترتجف خوفاً ووجلاً ومعها والدها الذي كان قد انتظر مقدمها في مكان خفي.

وهدأ أمونا سرو من روع ابنته، وكشف لها عن الباعث الذي حمله على المجيء إلى هذا المكان، وأخذ يوحي إليها بما يميله عليه واجبها في سبيل وطنها، وطلب منها أن تتحايل على حبيبها حتى تعرف منه المكان الذي اعتزم المصريون أن ينطلقوا منه لمباغتة الأحباش، وبهذا يتمكن أمونا سرو من الانتصار عليهم.

ورفضت عايدة بباء وشمم أن تغري حبيبها بخيانة وطنه وجيشه، ولكن والدها أثار فيها عاطفة المحبة له والإخلاص لبلادها فرضخت

كارهة. وما أن اختفى أمونا سرو بين الظلال حتى ظهر رداميس فارتمت عايدة في أحضانه وتعانقا عناقاً طويلاً حاراً.

ولما ذهبت نشوة اللقاء أخذ هذان المحبان اليائسان في تلمس الوسائل للخروج من الورطة التي وقعا فيها. وراح رداميس يؤكد لعايدة بقاءه على حبها وعزمه الأكيد على التخلص من زواج أمنريس على الرغم من الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق لإتمام هذا الزواج. وأسر إليها بأن عزمه قد صح على أن يلحق بالجيوش المصرية مع مشرق الشمس ويقودها إلى النصر ثم يعود عودة الأبطال الظافرين، ويسأل فرعون أن يزوجه منها مكافأة له على حسن بلائه.

على أن عايدة لم تطمئن إلى هذه النظرة المتفائلة وما فيها من تعلل بالأماني والأحلام، لأنها كانت واثقة جد الوثوق من أن غيرة أمنريس منها وحقدها عليها كفيلان بالوقوف في سبيل زواجهما. فشرعت تتوسل إلى رداميس بأن يفر معها إلى بلاد بعيدة حيث ينعمان بحبهما. فلما رأت تردده وشعوره بحاجة بلاده إليه في هذا الوقت العصيب، أشاحت عنه، وقالت في حزن وانكسار أنه لم يبق أمامها إلا الموت. ثم أردفت في مرارة ويأس بأنها ترى أن المصلحة تقضي بأن يعود رداميس إلى الأميرة المصرية فينعم بها ولا يتخلى عما ينتظره من مجد وفخار.

ولم يقو رداميس على سماع هذه الكلمات التي تقطر باليأس والأسى وطوق حبيبته بذراعيه وأعرب لها عن عزمه بأن يهرب معها هذه الليلة، لأن حبها في نظره أسمى من كل شيء في الوجود.

وثمل الحبيبان بخمر الغرام، وهما بتنفيذ ما اعتزما عليه، وتهيئا للرحيل، إلا أن عايدة تذكرت ما وعدت به والدها، فسألت حبيبها بصوت متهدج "كيف يتيسر لنا الهرب والجنود المصريون يحيطون بنا من كل جانب؟"

فأجابها في عزم وهدوء "سينتهي كل شيء على ما نحب، إذا تحاشينا ممر نباتا الذي ستختفي فيه الجيوش المصرية"

وما أن سمع أمونا سرو هذا السر الخطير الذي كان يتلهف على معرفته حتى خرج من مخبئه وتقدم غير هياب ولا وجل نحو المحبين وكشف للقائد المصري الشاب عن شخصيته.

وأسقط في يد رداميس، فقد أدرك بعد فوات الوقت أنه خان بلاده على غير وعي منه. غير أن أمونا سرو أخذ يهون عليه الأمر، ويزين له الانضمام إلى صفوف الأحباش حيث ينتظره المجد والنصر، ووعده بأن يزوجه من حبيبته عايدة مكافأة له على ذلك.

وفي هذه اللحظة خرجت الأميرة أمنريس من المعبد بصحبة الكاهن الأعظم بعد أن سمعا كل ما دار من حديث، وناديا الحرس وأمراه بالقبض على هؤلاء الخونة. وناشد رداميس أمونا سرو وعايدة أن يفرا بحياتهما، وأخذ هو يشاغل رجال الحرس حتى استيقن أن ملك الحبشة قد فر مع ابنته إلى مكان بعيد. ثم رأى أن مقتضيات الشرف تحتم عليه أن يسلم نفسه بلا مقاومة بعد أن خان بلاده ومليكه، فاستسلم للكاهن الأعظم وحمل أسيراً ليلقى جزاءه.

وبعد أيام قاد الحرس ردامیس إلى بهو العدالة في القصر الملكي ليحاسب على خيانته ويستمع الحكم عليه بالإعدام. وبينما كان الحراس يسيرون بالسجين إلى هذا البهو، إذ اقتربت منهم الأميرة أمنريس وطلبت في كبرياء وغطرسة أن تتحدث إليه، فتنحى الحراس احتراماً للأميرة، فخاطبت ردامیس متسائلة: أيحب أن يموت ميتة الخائن أو يعيش إلى جانبها ينعم بحياة زوجية سعيدة. وقد دفع الأمير إلى سلوك هذا المسلك بقاؤه على حب ردامیس وعجزها عن الشفاء منه على الرغم من كبريائها وأنفتها. وأخذ ردامیس يسأل الأميرة عن أخبار عايدة. فأجابته بأن أمونا سرو قد قتل في الحرب، وأما ابنته عايدة فقد نجحت في الهرب، ولاذت بمكان مجهول.

ثم توسلت الأميرة إلى ردامیس أن يترك التفكير في عايدة، ويقبل على حبها فستشفع له أبيها. ولكن ردامیس أعلن في قوة وعزم وفاءه لعايدة وصرح بأنه ليس ثمة قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تمحو صورتها من قلبه.

وعندئذ صاحت الأميرة وقد استبد بها الغضب والحنق لأن ردامیس عاد إلى الاستخفاف بحبها "اذهب إذن إلى الموت". ثم تقدم إلى بهو العدالة، وما أن توسط هذا البهو حتى راحت الأميرة فريسة لنوبة حادة من نوبات البكاء والعويل، ذلك أنها أيقنت أن ردامیس لابد ملاق مصيره، ولا سبيل إلى إنقاذه بعد أن مثل في حضرة قضاته. ثم وجه السجين بالتهمة، فلم ينبس ببنت شفة ذلك أن ضميره الحي قد هداه

إلى أن الدفاع لا يجديه فتيلا. وأعلن كبير الكهنة الحكم بإعدامه، فأحنى رداميس رأسه في خضوع واستسلام، لأنه كان قد فقد كل رغبة في الحياة. وضاقت الأرض بأمنريس، واستبد بها الحزن، وأخذت تسأل له الرحمة وألحت في توسلاتها فلم يستمع إليها أحد. وغشيتها نوبة من تبكيت الضمير، لأنها لم تبادر بالشفاعة لرداميس عند فرعون قبل أن تأخذ العدالة مجراها. وخرج كبير الكهنة من بهو العدالة جامد القلب، وقد أصم أذنيه عن سماع توسلات الأميرة المجروحة الفؤاد ولم يبال باللعنات التي صبها على رأسه قلبها الكسير.

واقتاد الحرس رداميس إلى معبد إله الحرب، وزج به في القبو تحت الأرض ليدفن حيا. وشرع الكهنة ينشدون ترانيم الموت في الوقت الذي كان يتدلى فيه غطاء القبو الحجري الكبير ليحكم إغلاقه.

وقف رداميس مستسلماً للقضاء غير هياب ولا وجل، عند أسفل درجة من درجات هذا القبو، وما أن أوشك غطاء القبو أن يطبق عليه حتى سمع تنهدة ناعمة تنبعث من جواره، فاستدار متلمساً مصدر الصوت فرأى على ضوء آخر شعاع نفذ إلى القبو شبح حبيبته تنتفض من شدة التأثر.

عجب رداميس لهذه المفاجأة، وهاله أن يرى كل هذا الجمال والشباب يدفن معه على هذا النحو الرهيب، فجن جنونه، وأخذ يبذل جهد الجبابرة ليرفع غطاء القبو الثقيل بعد أن استقر في موضعه، ولكن هيهات ..

وارتمى رداميس على درج القبو وقد برح به اليأس، فتلمست عايدة طريقها إليه، وراحت تهون عليه الخطب. ذلك أنها لما عرفت أن مصير رداميس قد تقرر هانت عليها الحياة وآثرت أن تموت معه، فتسللت إلى القبو من غير أن يراها الكهنة.

ولم يسع رداميس إلا أن يضم عايدة إلى صدره شاعراً بمقدار التضحية التي قدمتها على مذبح حبه راضية مغتبطة. وتعانق العاشقان، وأخذا ينتظران مصيرهما المحتوم في طمأنينة وابتهاج، وقد خلا قلباهما من الحسرة على حياة فرقت شملهما، ورحبا بموت يجمع بينهما إلى الأبد.

القديس العابث

للكاتب الألماني/ جوتفريد كيللر

كان يعيش بمدينة الإسكندرية في القرن الثامن الميلادي راهب عجيب يدعى فيتالس، وقف حياته على هداية بنات الهوى وصرفهن عن سبيل الغي إلى سبيل الرشاد والاستقامة. وأخذ هذا الراهب يمارس مهمته في حماسة وشغف، ولكنه لم يسلك الطريق القويم الذي يؤدي به إلى غرضه، بل اختار أسلوباً غريباً أوقعه في المذلة والهوان وحمله حملاً على الخداع والتمويه، واسترسل في ذلك استرسالاً قد لا نجد له شبيهاً في هذا العالم.

بدأ فيتالس بإعداد سجل دقيق بأسماء بنات الهوى كتبه على قرطاس أنيق نظيف، وكلما عثر بامرأة على شاكلة هؤلاء بادر إلى تدوين اسمها وعنوانها في هذا السجل. والحق أن فيتالس لو لم يكن مستقيم القصد شريف الغاية لما وجد نبلاء الإسكندرية الشبان الراغبون في اللهو دليلاً يقودهم إلى بيوت الهوى أفضل من هذا الراهب. على أن فيتالس كان يسترسل معهم في الحديث متخابثاً، ويستطلع منهم أسرار هذه البيوت، ولا يفضي لهم بشيء مما يعلم.

حمل فيتالس سجله وطواه في حافظة من الفضة خبأها في قلنسوته. وكان يرجع إليه كثيراً لرصد كل صيد جديد، أو لتدبير أمر

غزواته لهذه البيوت وترتيب مواعيدها. فإذا استقر رأيه على غزوة هرول إلى البيت الذي عينه وقال لصاحبته في خفر واستحياء "احتفظي لي بليلة بعد الغد ولا ترتبطي بموعد مع أحد". وفي الموعد المحدد يدخل بيتها ويترك السيدة الجميلة واقفة تنتظره ويلوذ بركن الغرفة، ثم يخر ساجداً وينخرط في الصلاة مبتهلاً إلى العذراء بأعلى صوت أن تهديها إلى الصراط المستقيم، ويظل قائماً في صلاته حتى ينبلج الصبحِ، ثم يغادر المنزل بعد أن يغلظ عليها بألا تبوح لأحد بما دار بينه وبينها.

واستمر فيتالس في طريقه هذا لا يبغي عنه حولا، فعرض سمعته للفضيحة والهوان. صحيح أنه كان في السر يروع البغايا بكلماته النارية وعظاته القوية ودعواته الهامسة الصادقة، ولكنه كان يسلك في العلن سبيل الراهب المفتون الضال الذي غرق في حمأة الرذيلة، وانغمس إلى ذقنه في ملذات الفجور والخلاعة، ودنس مسوح الرهبان، ولطخ سمعتهم بالوحل.

فإذا ألفى نفسه في أمسية من الأمسيات في جمع من أفاضل الناس صاح قائلاً "ماذا دهاني! لقد كدت أنسى أن السمراء دوريس تنتظرني. بالعزيزة الصغيرة! أعوذ بالله من الشيطان! يجب أن أذهب إليها من فوري وإلا قلقت علي وانشغل بالها!"

وقد يبادر واحد منهم بلومه وتعنيفه فيصبح غاضباً "أو تظنني حجراً لا أحس ولا أشعر؟ وهل دار بخلدك أن الله لا يصح له أن يخلق امرأة شابة من أجل راهب؟" فإذا أجاب أحدهم "أولى بك أيها الأب أن تخلع مسوح الرهبان وتتزوج حتى لا تؤذي شعور الآخرين" أجابه "دعهم يتأففون

كما يحلو لهم. وليضربوا رءوسهم في الحائط، فليسوا موكلين بحسابي.

وكان يقول ذلك كله في شدة عظيمة ولغة مسرحية رنانة مثله مثل ذلك الذي يدافع عن قضية خاسرة بحشد من الكلمات الجريئة.

وكم من مرة خرج فيتالس من صومعته، وقصد بيتاً من بيوت الهوى، وتشاجر مع عشاق صاحبته المرابطين أمام باب البيت. وكان في بعض الأحيان يتضارب معهم فيصيحون به "أغرب عن وجوهنا أيها الراهب! ما بال هذا القسيس يريد أن ينازعنا دنيانا؟ اذهب أيها الأصلع".

ولكنه كان عنيداً مشاكساً لا يتحول عن غرضه قيد أنملة، وكثيراً ما كان يتغلب عليهم ويتسلل إلى المنزل قبل أن يفيقوا ويتمالكوا رشدهم.

فإذا عاد إلى صومعته في غبشة الفجر خر ساجداً للعذراء التي تحمل من أجلها كل هذه المخاطر وابتلى في سبيلها بذم الناس وتشنيعهم. وإذا قيض له النجاح، واستطاع أن يهدي نفساً ضالة ويحملها آمنة إلى دير من الأديرة، مثل بين يدي العذراء منشرح الصدر عامر القلب بالإيمان مفضلاً ما فعل على هداية ألف كافر إلى دينه القويم.

وبلغه في يوم من الأيام نبأ امرأة خطرة فتنت الناس بجمالها واستخفت أحلامهم يسحرها فتشاجروا من أجلها وسالت دماؤها، ورابط على بابها عاشق متأنق شرس من رجال الجندية وأخذ يطيح بكل من ينازعه في حبها. فما كان من فيتالس إلا أن دبر من فوره خطة مهاجمة هذا الجحيم وغزوه. ولم ينتظر حتى يسجل اسم هذه الخاطئة في سجله

المعهود، بل مضى إلى ذلك البيت القبيح الصيت لا يولي على شيء، والتقى على بابه بالجندي الذي كان يتخطر أمامه محاذراً وقد اشتمل برداء قرمزي وأمسك حربة في يده. وصاح الجندي في فيتالس التقى وقال له باحتقار:

"أغرب عن وجهي أيها الراهب الحقير. كيف تجرؤ على التلصص حول عريني. السماء مأواك، والدنيا دنيانا!"

فرد عليه فيتالس "السماء والأرض وكل ما عليها لله ولعبيده المرحين! فألزم حدك أيها المأفون المتعاجب، ودعني أذهب إلى حيث يحلو لي!"

واستبد الغضب بالجندي، ورفع حربته، وهم يطعن الراهب في رأسه، ولكن فيتالس أسرع فجأة بإخراج غصن زيتون من طيات مسوحه وتفادي الطعنة، وضرب هذا الثور الهائج على أم ناصيته فترنح، ثم عاجله بلطمات على أنفه فتهالك على نفسه وولى وهو يسب ويلعن.

وعندئذ اقتحم الراهب الباب منتصراً فوجد على رأس السلم الضيق امرأة واقفة وقد أمسكت بيدها مصباحاً، وراحت تنصت إلى الجلبة والصياح المنبعثين من خارج دارها. كانت هذه المرأة بديعة التكوين ذات. تقاطيع جميلة حادة فيها قوة وتحد، وقد تماوجت خصلات شعرها الأحمر مسترسلة على سجيتها كأنها معرفة أسد. ونظرت إلى فيتالس من فوق السلم نظرات تنم عن الازدراء والاحتقار، وقالت "إلى أين؟" فأجابها "إليك أيتها القمرية. ألم يبلغك خبر فيتالس الحنون، فيتالس

المرح الطروب؟" ولكنها لم تحفل به، وسدت في وجهه السلم بقامتها الفارعة، وقالت له بلهجة خشنة: "أفي جعبتك مال أيها القس؟" فأجابها مرتبكاً "القسس لا يحملون في جعبتهم مالاً" فقالت "إذن، اذهب إلى حال سبيلك، وإلا كويتك بالنار، وحملتك حملاً على الخروج"

وأسقط في يد فيتالس، فقد وقع في يد امرأة شريرة لا ترحم. ذلك أن النساء الساقطات اللائي اهتدين بهدية لم يفكرن في اقتضائه ثمن ما ألحقه بهن، أما النساء اللائي ضربن بمواعظه عرض الحائط فقد اكتفين بتعنيفه على ما ضيع من وقتهن. وتحير فيتالس في أمره، وعجز عن اقتحام هذا البيت، ولكن هذا العجز شحذ عزيمته وأغراه ببذل كل ما في وسعه لهداية هذه المرأة الحمراء الشعر التي ركبها الشيطان. وأخذ يفتش في مسوحه يائساً، فعثر بتلك الحافظة الفضية المرصعة بالأحجار الكريمة. فقدمها للمرأة قائلاً: "لا أملك غير هذه فخذيها واسمحي لي بالدخول!" فأمسكت بها وهزتها، وتأملت فيها بعناية، ثم سمحت له بالدخول معها. وبلغ فيتالس مخدعها، على أنه لم يتعطف عليها بنظرة أخرى، بل ركع في ركن الغرفة كعهده، وراح يصلي بصوت جهير.

وانتابت المرأة نوبة من الضحك لم تستطع لها دفعاً، فقد ظنت أن الراهب قد انخرط في الصلاة بحكم العادة قبل أن يقبل على شأن من شئون الدنيا، وجلست على سريرها ترقبه، وتتسلى برؤية هذا الراهب العجيب الذي أضحكها وسرى عنها. ولكنها بدأت تضيق بهذه الصلاة المتصلة التي لا تنقطع، فكشفت عن كتفيها في فجور، ودنت منه، ثم

أطبقت عليه بذراعيها القويتين البضتين، وأخذت تضيق عليه الخناق حتى كاد أن يختنق، وراح يلهث ويلهث، وشعر بأن نيران الجحيم قد اكتنفته من كل جانب. على أن فيتالس لم يستسلم لها، بل شرع يتملص من قبضتها، ويضرب بيديه ورجليه في كل اتجاه حتى انفلت من أسرها. ثم عمد إلى الحبل الذي يتمنطق به، وامسك بها وقيد يديها إلى ظهرها ليأمن شرها. ولم يتم له ذلك إلا بعد صراع عنيف. ثم قيد رجليها أيضاً ورماها كالحزمة على السرير وتنفس الصعداء. ولاذ مرة أخرى بركن الغرفة، واستأنف صلاته غير عابئ.

وهاجت المرأة وماجت كأنها الوحش الجريح، وراحت تجاهد محاولة التخلص من قيودها. ثم جنحت إلى الهدوء، وأخذت تستمع إلى الراهب الذي لم ينقطع عن الصلاة من أجلها، والدعاء لها بالهداية وملاحقتها بمواعظه. وما أن طلع الصبح حتى انبعثت من صدرها تنهدات مكلومة أعقبتها زفرات حرى وبكاء مر. وأشرقت الشمس على المرأة وهي راقدة عند قدمي فيتالس بعد أن فك اسارها، وأخذت تبلل طرف مسوحه بدموعها، والراهب يربت على رأسها ويعدها بالزيارة عندما تغيب الشمس لينبئها باسم الدير الذي سيلحقها به. ثم خرج بعد أن استحلفها بأن لا تخبر أحداً بما دار بينه وبينها.

ولشد ما تعجب الراهب عندما حضر في الموعد المعلوم فوجد باب بيتها محكم الإغلاق، وقد أطلت المرأة من النافذة في كامل زينتها ورونق بهائها. فلما رأته صاحت به "ماذا تريد أيها الراهب؟" فأجابها في

صوت خفيض متحيراً "ما معنى هذه يا صغيرتي؟ اطردي هؤلاء الطراطير الآثمين ودعيني أدخل لأهيئك للتوبة" فأجابته مبتسمة كأنها لم تفهم ما يرمي إليه "أتريدني أيها الراهب العابث؟ أعندك مال أو ما يقوم مقام المال؟" فحملق فيتالس فيها فاغر الفهم، وأخذ يدفع الباب يائساً. ولكن الباب لم ينفتح، وتركت المرأة النافذة.

وأخيراً علت ضحكات المارة، وسخروا من هذا الراهب الفاجر ورموه بكل نقيصة، ثم ألقوا به بعيداً عن الباب، ولكنه أعمل فكره وركز جهوده في التماس وسيلة يقتحم بها البيت، ويقهر هذه الشيطانة الساحرة.

واستغرق فيتالس في التفكير، وحملته قدماه إلى الكنيسة قريبة، فدلف إليها، ثم وقع بصره على صندوق النذور. وما أن جن الليل وانصرف المصلون حتى ضرب الصندوق بقبضته فانفتح، وأفرغ كل ما فيه من نقود فضية في عبه، وهرول إلى بيت المرأة.

فلما بلغه وجد أحد المعجبين المتحذلقين يهم بولوج بابه، فأمسك فيتالس بشعره المعطر المنسدل على قفاه، ورمى به إلى الشارع، واندفع إلى البيت، وأغلق الباب في وجهه وما لبث أن وجد نفسه في حضرة المرأة الضالة، فنظرت إليه بأعين التهبت بنيران الغضب لأنه ضيع عليها ذلك الصيد الثمين. ولكن فيتالس لم يبال بها، وأفرغ ما في جعبته من النقود التي سرقها من الكنيسة قائلاً: "أيكفيك هذا المال نظير هذه الليلة؟" فلم تجبه وراحت تحصي النقود في حرص وعناية، ثم قالت "هذا يكفي".

ووقف الرجل والمرأة متواجهين على هذا النحو العجيب الغريب. ثم عضت المرأة على شفتها لتخفي ضحكة لم تستطع لها دفعاً، ونظرت إليه متجاهلة لشأنه، في حين أخذ فيتالس يتفحصها بنظرات متفرسة متبلبلة، وارتج عليه القول فلم يدر كيف يبدأ معها الحديث. ولكنها ما أن عمدت إلى إغوائه بإيماءاتها الفاتنة وشرعت تداعب لحيته الملساء حتى استبد به الغضب، وثار لاعتدائها على كرامة ولايته وزهده، وأطاح بيدها في اشمئزاز واستنكار، ورماها على السرير، ثم برك فوقها وأمسك بيديها غير عابئ بجمالها وسحرها، وأخذ يصب في آذانها عظاته وينذرها بالعذاب الأليم حتى هدأت بعض الشيء.

وأخلدت المرأة إلى السكون، وانهمرت الدموع من عينيها وفاضت على قسماتها البديعة وجسمها القوي الجميل، وأخلى الراهب سبيلها، وانتصب واقفاً أمام سريرها الملوث، وارتمت هي على السرير منهوكة القوى وقد هد كيانها الندم والتوبة، وراحت تنهنه وتنظر إليه بعينين غشتهما الدموع كأنما أدركتها الدهشة لهذا التحول العجيب الذي طرأ عليها.

وهدأت ثائرة الراهب وخفت حدة كلماته، وأخذ يحدثها في صوت حنون ولغة تفيض بالتأثر، حامداً العذراء على هذا الفوز المبين الذي وفق إليه بعد أن خاض في سبيله كل هذه الأهوال. وراح يصلي لها إلى أن بزغ الفجر. وأقسم أن لا يغمض له جفن حتى يهدي هذه المرأة الضالة إلى سواء السبيل، ويحملها آمنة إلى الدير الذي اختاره لها.

ولما غاب النهار انطلق إلى بيتها. ولكنه وجد ذلكم الجندي الشرس مقبلاً من طرف الشارع الآخر، وقد استقر في رأسه المخمور أن يغزو قلب المرأة من جديد.

وكان فيتالس أقرب إلى باب البيت من الجندي، فأسرع في خفة ليلجه، بيد أن الجندي رفع حربته ورماه بها فانغرست في الباب بجوار رأسه فانتزعها الراهب بكل قوته، وواجه الجندي المهتاج الذي كان قد جرد عليه سيفه. على أن الراهب طعنه بالحربة في صدره طعنة خاطفة فخر الجندي صريعاً. وبادر الحراس الذين كانوا عائدين من نوبتهم الليلية بالقبض على فيتالس وحملوه إلى السجن.

وتطلع الراهب إلى البيت في حسرة وحز في نفسه أن يحال بينه وبين هداية هذه المرأة اللعوب. وظن الحراس أنه يندب حظه الذي حرمه من الاستمتاع بتلك الفاتنة فأوسعوه ضرباً وتعنيفاً على فسقه وفجوره. وظل في سجنه عدة أيام مثل في أثنائها كثيراً أمام القاضي. صحيح أن القاضي أخلى سبيله آخر الأمر لأنه قتل غريمه دفاعاً عن نفسه، إلا أنه خرج من السجن ملوث الصفحة موصوماً بجريمة القتل، وتصايح الناس مطالبين بإخراجه من زمرة الرهبان الأطهار، ولكن الأسقف يؤانس كبير أساقفة الإسكندرية في ذلك الوقت كان يعلم فيما يظهر بدخيلة فيتالس فلم يستجب لهذا الطلب، وسمح له بمواصلة جهاده.

ولم يضيع فيتالس دقيقة واحدة من وقته. بل قصد من فوره إلى بيت هذه العاهرة الفاجرة التي عادت إلى سابق عهدها وتحالفت مع

الشيطان على إغواء الناس بعد أن تابت على يديه مراراً وتكراراً. والظاهر أن المرأة قد رأت أن المصلحة تقتضيها مسايرة هذا الراهب والتظاهر أمامه بالتوبة، وتفننت أيما تفنن في العبث به، واسترسلت في الكيد له استرسالاً.

أما فيتالس فقد أحس الآن بأنه شهيد في السر والعلن. ذلك أنه بدا في أعين الناس راهباً ضالاً فاسقاً، استحل لنفسه القتل، كما أقدم في الباطن على سرقة الكنيسة وعجز عن هداية هذه الشيطانة. غير أنه لم يستسلم للهزيمة، واستقر رأيه وعزمه على أن حملها على التوبة هو سبيله إلى الاستشهاد الحق.

وأثرت هذه الأرزاء والخطوب في نفسه فتحل جسمه وأصبح يسير كالشبح، إلا أن الابتسامة لم تفارق شفتيه.

واتفق أنه كان يقوم أمام بيت هذه العاهرة منزل يسكنه تاجر يوناني موسر هو وابنته الوحيدة ايول. وكانت السن قد تقدمت بهذا التاجر فترك تجارته، وعكف في بيته على دراسة أفلاطون حتى إذا مل من القراءة فيه راح ينظم الأمثال ويقرض الشعر متغنياً بمجموعة ثمينة من الجواهر المنقوشة كان يحتفظ بها لديه. أما ابنته ايول فقد كانت حرة تفعل ما يروق لها ولا تدري كيف تنفق يومها. فكانت إذا فرغت من عزفها وموسيقاها تحار في تلمس الأسباب للتنفيس عن أهوائها الحبيسة وعواطفها الجياشة. فتروح تنظر إلى السماء في قلق، وترقب الأفق في حيرة ولا تترك ثقباً إلا أطلت منه مستنبئة مستطلعة.

وهكذا اتصل بها نبأ تجول الراهب روحه وجيئة في الطريق، وعرفت سر هذا القس القبيح الصيت. فعجبت لأمره، وأخذت تختلس النظر إليه من مخبئها في خفر واستحياء، ولم يسعها إلا الإعجاب بوسامته وملاحته ومظهر الرجولة البادي عليه. فلما علمت من إحدى خادماتها التي كانت صديقة لإحدى خادمات تلك المرأة كيف خدعته الشيطانة وغررت به، وعرفت ايول خبيئة نفسه تعجبت غاية العجب وتملكها غضب غريب، فقد رأت أن عفة هذا الراهب وقداسته فيهما مساس بكرامة جنسها. وتدبرت هذا الأمر، وسرحت بخيالها فيه متحيرة فاشتد حنقها وزاد في الوقت نفسه ميلها للراهب، وأخذت هاتان العاطفتان تتنازعانها وتقلقان بالها.

ودار بخلد ايول أن العذراء قد غفلت عن هداية الراهب إلى السبيل السوي، فصح عزمها على أن تمد إليها يد المساعدة وتتولى هي تسديد خطاه، وغاب عنها أنها أصبحت أداة في يد العذراء وسبباً لصرفه عن غيه. وما كان من ايول إلا أن قصدت إلى والدها وشكت إليه مر الشكوى من مجاورتهم لبنت من بنات الهوى، وألحت عليه أن يستعين بماله وثرائه على التخلص من هذه المرأة.

وعمل السيد العجوز بنصيحة ابنته، فخاطب المرأة في هذا الشأن واتفق معها على شراء منزلها، واشترط عليها أن تخليه فوراً، فأذعنت، وتركت المنزل في عصر اليوم نفسه. وعاد هو إلى دراسة أفلاطون ونسى هذه المسألة كل النسيان.

أما ايول فلم تنس قط ما بيتته من أمر، فطهرت المنزل من جميع آثار هذه المرأة الدنسة، وبخرته بالبخور الذكي النادر، ثم عمدت إلى مخدع المرأة الخالي ووضعت فيه سجادة، وأصيصاً من الورد، ومصباحاً، واكتفت بذلك. ثم انتظرت حتى غربت الشمس وأوى أبوها إلى مضجعه، وانتقلت إلى المنزل المعهود وقد زينت شعرها بإكليل من الورود، وجلست وحيدة على السجادة المفروشة، ووكلت إلى خادمين أمينين من خدامها المتقدمين في السن بحراسة الباب.

ووقف الخادمان بباب البيت يطردان كل من يحوم حوله من رواد اللهو، فلما أبصرا بفيتالس قادماً اختفيا وتركاه يلج الباب المفتوح دون أن يعترضا طريقه. وارتقى فيتالس السلم متنهداً وقد خشى أن تعود المرأة إلى العبث به، وراوده الأمل في أن ينجح هذه المرة، وتتوب المرأة على يديه توبة نصوحاً حتى يتفرغ لهداية غيرها من بنات الهوى. وتعجب فيتالس غاية العجب عندما وجد الغرفة خالية من تلك الشيطانة الحمراء، وقد حلت محلها فتاة لطيفة رقيقة جلست على السجادة ووضعت أمامها على أديم الغرفة شجرة من أشجار الورد.

وتلفت الراهب حواليه مأخوذاً ثم استقر نظره على تلك الفتاة الهيفاء الجميلة، وصاح متسائلاً "أين ذهبت تلك المخلوقة التعسة التي كانت تقيم هنا؟"

وأجابت ايول دون أن ترفع بصرها إليه "ذهبت إلى الصحراء، وهي تنوي أن تعتزل العالم هناك، وتنقطع للتعبد والتوبة. وقد قام بنفسها هذا

الخاطر صباح اليوم فزلزل كيانها وأيقظ ضميرها أخيراً. وصاحت مستنجدة بقديس يدعى فيتالس. ولكن هذه المجنونة لم تطق الانتظار، فجمعت كل ما تملك وباعته، وتصدقت به على الفقراء، وهرولت إلى الصحراء مقصوصة الشعر وعلى رأسها خرقة وفي يدها عصا".

وصاح فيتالس وقد شبك يديه على صدره مسبحاً وكأنما انزاح عن صدره حمل ثقيل "تباركت يا رب، وتباركت أمك العذراء البتول!" ثم أردف وقد ضاقت عيناه "ولكن لم تنعتين هذه المرأة بالمجنونة؟ ومن أنت؟ ومن أين أنت؟ وما شأنك؟"

وعندئذ غضت الحسناء ايول من بصرها أكثر وأكثر، ونكست رأسها، وشاعت حمرة الخجل في وجهها، واستحت من الكلام الذي ستفضي به لهذا الرجل:

"أنا يتيمة منبوذة لا أب لي ولا أم. وما المصباح والسجادة وشجرة الورد إلا بقايا ميراثي. وقد استقر بي النوى في هذا المنزل لأحيى الحياة التي تخلت عنها من سبقتني" فصاح الراهب متعجباً وقد صفق بيديه "مرحى مرحى! ها هو ذا الشيطان ما زال دائباً على نشطاه! وهذه المخلوقة البريئة تقول هذا القول المنكر في مواجهة فيتالس غير حافلة ولا عابئة! إيه يا صغيرتي، خبريني عن السبيل الذي قررت أن تسلكيه في تنفيذ ما اعتزمت عليه، خبريني خبريني!"

فأجابت ايول وقد أشارت إلى أصيص الورد متعجلة "سأهب نفسي للحب وقضاء حاجة الرجال ما دام هذا الورد حيا!" وظلت ايول تجاهد

في النطق بالكلمات، وكادت تخر على الأرض من الخجل والعار ونكست رأسها تنكيساً. وقد أثرت هذه الحشمة المرسلة على السجية في هذا الرجل الجبار الشامخ، واستقر في نفسه أنه يواجه هذه المرة طفلة ساذجة ركبها الشيطان وأوشكت أن تنزلق إلى قرار الهاوية، وراح يعبث بلحيته راضياً مغتبطاً لأنه أدرك هذه الفتاة الطاهرة في الوقت المناسب، وأراد أن يستمتع بنعمة هذا الرضا أمداً أطول فقال لها "سننظر في هذا الأمر بعد يا صغيرتي".

"بعد! أن التريث خليق بأن يسير بي في طريق الضلال، فأذهب إلى النار ويكون مثواي كمثوى فينوس الجميلة، أو لعلني ألقى واعظاً صالحاً من بعد فيهديني إلى دير آوى إليه واستغفر من ذنوبي!" فصاح فيتالس "مرحى مرحى، هذه خطة محكمة لا شك أنك أحسنت تدبيرها. أما الواعظ فهو ماثل أمامك الآن أيتها الشيطانة الحوراء، وأما الدير فها هو ذا باسط ذراعيه لاستقبالك، وستذهبين إليه دون أن ترتكبي ذنباً أو تقترفي إثماً، اللهم إلا النية. ولولا النية لكان موقفك أيتها الساخرة الصغيرة عجيباً مضحكاً لا يقتضي ندماً ولا يغرى بتوبة!" ثم اتخذ فيتالس سمة الجد وأردف قائلاً "والآن، هلمي برفع هذه الورود، وأصغ إلي في انتباه".

وأجابت ايول في شيء من القحة "سأستمع إليك أولاً، ثم أنظر في رفع الورود. أما وقد تغلبت مرة على طبيعة النساء، فإن الكلمات وحدها لا تكفي لردي عن ذلك حتى أعرف خطيئتي. ولا يمكنني أن أعرف شيئاً عن التوبة بمعزل عن الخطيئة. وأنا أبادرك بهذا القول حتى تفكر في موقفك

قبل أن تسعى إلى هدايتي، ومع كل فها أنا ذا مستعدة للاستماع إليك".

وبدأ فيتالس يلقى على سمعها أبلغ ما أبدعه من مواعظ. واستمعت إليه الفتاة مخلصة منتبهة، ولا شك أن جمالها ومنظرها البريء الطاهر قد أثرا فيه أيما تأثير، فأخذ ينتقي ألفاظه ويتخير عباراته. على أن كلماته البليغة لم تحرك مشاعرها لأنها كانت تمثل هذا الموقف تمثيلاً. وارتسمت على شفتيها الفاتنتين ابتسامة ساحرة، وما أن ختم حديثة وأخذ يجفف العرق المتصبب من وجهه حتى قالت له "أيها الراهب، إن كلماتك لم تستحوذ على قلبي أو تملك على نفسي، ولم تفلح في أن تصرفني عما عولت عليه. ذلك أنني أتطلع إلى ارتياد حياة الخطيئة والمتعة!".

وهب فيتالس واقفاً كأنما نزلت به صاعقة، وارتج عليه القول فلم ينبس ببنت شفة، وخانته قواه لأول مرة في حياته. وأخذ يذرع الغرفة روحه وجيئة متنهداً مفكراً، ثم ألقى نظرة أخرى على هذه الفتاة الصغيرة التي همت بأن تبيع نفسها للشيطان، واستقر في وهمه أن قوة الشيطان قد تحالفت مع سلطان البراءة وتعاهداً على معاندته والوقوف في طريقه. غير أن ذلك لم يفل من عزيمته وزاده إصرار على الصمود لهما والتغلب عليهما.

وأخيراً صاح بها "لن أغادر هذا المكان حتى أحملك على التوبة ولو بقيت هنا ثلاثة أيام بلياليها!"

فأجابت ايول "سيزيدني ذلك إصراراً وعناداً. ولكني سأظل مدة أفكر في الأمر، وسأستمع إليك ثانية في مساء الغد. فاذهب الآن إلى حال سبيلك فقد أوشك الفجر أن يبزغ. وإني لأعدك بأن لا أخطو

خطوة في تنفيذ ما اعتزمته، وسأبقى في موقفي هذا بشرط واحد، هو ألا تخبر أحداً بما دار بيني وبينك ولا تزورني إلا إذا أرخى الليل سدوله".

فرد فيتالس متعجباً "فليكن ما أردت!" ثم غادر المنزل، وتسللت ايول عائدة إلى منزل أبيها.

ولم يطل نوم ايول، وأخذت تنتظر حلول المساء بفارغ الصبر. ذلك أن الراهب قد راق في نظرها على القرب أكثر مما راقها على البعد، ولمست فيه شدة غيرته ورأت بريق عينيه المشتعلتين بنيران الحماسة، وشاهدت عن كتب ما تنطوي عليه حركاته من ثقة وعزم على الرغم من المسوح التي ارتداها. ولما تمثلت إنكاره لنفسه، ودأبه على بلوغ الغرض الذي وقف عليه حياته، تاقت نفسها إلى اتخاذه زوجاً لها واستغلال فضائله لمصلحتها هي. ورسمت خطة إيقاعه في حبائل هواها وصرفه عن طريق الاستشهاد إلى طريق الزواج الصالح.

وفي مساء اليوم التالي جاء فيتالس في الموعد المضروب، ووقف على سجادتها، واستأنف مواعظه في غير وهن أو فتور، وظل واقفاً اللهم إلا في الفترات التي كان يسجد فيها للصلاة. أما ايول فقد جلست مسترخية، ومالت إلى الوراء، وشبكت يديها على رأسها، وراحت ترقب الراهب بنصف عين وهو واقف يعظها، وكان النعاس يغالبها في بعض الأحيان فيركلها فيتالس بقدمه لإيقاظها، ولكن هذه الخشونة كانت دائماً تخف وترق حيثما كان يريد لها أن تقسو وتعنف. ذلك أن قدمه كانت لا تطاوعه، فما أن تقترب من جنب ايول المرهف حتى يقل اندفاعها وتمس

أضلاعها في رفق ولين. بل أن هذه اللمسة كانت كفيلة بأن تشيع في جسد الراهب كله شعوراً غريباً لم يطرأ عليه قط في مغامراته مع بنات الهوى اللائي صادفهن من قبل.

وكانت ايول تومئ برأسها إليه مراراً كلما أقترب الصبح حتى صاح بها فيتالس غاضباً "أيتها الطفلة، أنت لا تصغين إلي. وا أسفاه. لقد بلغ بك الاستهتار منتهاه!"

وفتحت ايول عينيها فجأة، وشاعت في وجهها ابتسامة حلوة تمثل فيها شروق الشمس الطالعة، وقالت "ليس الأمر كما تقول، وقد كنت مصغية إليك إصغاء تاماً. وهاأنذا قد بدأت أكره هذه الخطيئة الشنيعة التي سببت لك كل هذا القلق أيها الراهب العزيز، وازداد نفوري منها ومقتي لها. ذلك أنني لا أستطيع أن أقدم على شيء يغضبك وتمجه نفسك".

فسألها وقد استخفه السرور "أصحيح ما تقولين؟ وهل كتب لي التوفيق فيما كنت أقصد إليه؟ هيا إذن إلى الدير بلا إبطاء حتى تستوثق من توبتك. ولنعال المسألة هذه المرة وهي في حموها".

وأجابت ايول "أنت لا تفهمني حق الفهم" ثم علا وجهها الخجل، وغضت من بصرها وقالت "أنا أحبك، وأشعر بميل نحوك!"

وشعر فيتالس لحظة بيد تعصر قلبه عصراً، ولكنه لم يحس لذلك ألماً وشلت حركته، وفغر فاه وفتح عينيه تفتيحاً، ووقف جامداً كالمأخوذ.

على أن ايول ازدادت خجلاً، وأردفت تقول في صوت رقيق ناعم

"عليك الآن بإرشادي ونصحي، واشف نفسي من هذا الحب، وخلصني من هذا الداء العياء، وإني لأدعو لك بالتوفيق"

وتحير فيتالس في أمره، وارتج عليه القول، ولم يسعه إلا الفرار من المنزل لا يلوي على شيء. ولكنه لم يأو إلى صومعته لينام، بل انطلق يسير في نور الفجر، وأخذ يتدبر هذه المشكلة ويضرب أخماساً لأسداس. أيترك هذه الشيطانة الصغيرة الخطرة تواجه مصيرها الشائن وينفض يديه منها، أم يجاهد في سبيل تخليصها من هذا الداء الوبيل، وفي هذا ما فيه من فتنة له وخطر عليه؟ وطاف بذهنه أن الشيطان قد نصب له هذه الأحبولة ليبتليه، وأن الواجب يقتضيه أن يبتعد عن طريق الغواية والضلال. ولكنه راجع نفسه، وخشى أن تكون هذه الفتاة في محنة بلبلت أفكارها وأن خلاصها لا يتطلب منه ألا يضع كلمات خشنة تدفعها إلى سبيل الهدى والصلاح. وصفوة القول أن فيتالس لم يستقر على رأي، ذلك أنه أحس بشيء ما في أعماق قلبه يشوش عليه تفكيره.

ودلف فيتالس في حيرته إلى معبد صغير أقيم فيه حديثاً تمثال قديم جميل من المرمر للإلهة يونو، وأحيط بهالة من الذهب على صورة مريم العذراء إبقاء على هذه التحفة الفنية البديعة. وسجد الراهب أمام العذراء ونفض بين يديها شكوكه ووساوسه، وطلب منها آية تهديه إلى سواء السبيل. فإذا أومأت إليه راضية أقبل على ايول، وإذا هزت رأسها منكرة انصرف عن ذلك.

ولكن صورة العذراء تركته في شكوكه ولم تومئ له بالقبول أو الرفض. وكل ما حدث أن خيوط الفجر الوردية داعبت وجهها فخيل إليه

أنها تبتسم في عطف وإشفاق، ولم يدر فيتالس أي الإلهتين أنزلت عليه هذه الآية؟ أتكون الإلهة يونو راعية الحب والطهر هي التي ابتسمت في وجهه، فلم يسع العذراء مريم إلا أن تجاربها في ابتسامتها رحمة بعبدها المكروب البائس. قد يكون ذلك صحيحاً، فهما امرأتان يتأثر قلباهما بالحب إذا مر بهما شأن من شئونه! والحق أن هذه الابتسامة الجميلة قوت من عزيمة فيتالس وشحذت همته شحذاً، وأعجب من ذلك أن التمثال قد بدا متقمصاً وجه ايول الخجول الحي، ايول التي تحدته أن يشفيها من نيران غرامه.

وكان والد ايول يتمشى في هذا الوقت تحت أشجار السرو في منزله، ذلك أنه حصل على مجموعة جديدة رائعة من الجواهر قطعت نقوشها عليه نومه وأيقظته في هذه الساعة المبكرة من النهار، وأخذ الرجل العجوز يتأملها معجباً، ويشاهد ما نقش عليها من مشاهد ربات الحب وما وقع لهن من أحداث، واكتنف حياتهن من أساطير.

وأغرته هذه المشاهد بنظم أبيات في هذه الجواهر وحار بأيها يبدأ، وفي هذه اللحظة دخلت عليه ابنته ايول في الحديقة شاحبة اللون وقد بدا عليها أثر السهاد. وعجب الرجل لهذا التغير، وأراد أن يعرف سره، فنادى عليها وسألها عما يؤرقها ويشغل بالها. وقبل أن تجيبه بدأ يريها جواهره ويشرح لها ما نقش عليها.

وعندئذ تنهدت ايول من صدر جريح وقالت "أواه! إذا كانت ربات الطهر والعفاف والحكمة لم يستطعن أن يقهرن الحب ويدفعنه عن أنفسهن

فكيف يتاح لي أنا المخلوقة الضعيفة أن أحتاط له وأنجو من شره؟"

وعجب السيد العجوز من كلام ابنته وقال "ماذا أسمع! هل رماك كيوبيد بسهمه؟". فأجابت: "نعم، لقد نفذ سهمه إلى قلبي، وإن لم أحصل على الرجل الذي أحبه في يوم وليلة فسأقدم نفسي عروساً للموت!"

وكان هذا الوالد الرحيم قد أطلق العنان لابنته وتركها حرة تتصرف في شئونها كما تشاء، ولكن هذا التعجل الذي بدر منها صدم شعوره وفاجأه مفاجأة، فنصحها بالتريث والأناة. فقالت له أنها تروت في الأمر، وقلبته على جميع وجوهه، وعندئذ صاح السيد العجوز متعجباً "هل كتب علي حقاً أن أنهض بأشق مهمة يمكن أن تلقي على كتفي والد فاذهب إلى الرجل الذي اخترت، وأقوده من خطمه وأقدمه إلى فلذة كبدي ومنى روحي، راجياً منه أن يكون رحيماً بها وأن يرضى بها زوجة؟ وهل قدر لي أن أقول له: يا سيدي العزيز، إليك فتاة جميلة صغيرة، وإني لأتوسل إليك أن لا تحتقر شأنها! إنه لخير لي أن ألطمك على وجهك لطمتين، ولكنك يا قرة العين وحبة الفؤاد تهددينني بالموت، ويجب علي والحالة هذه أن أكون رقيقاً مهذباً! هيا، هيا، أقبلي على هذه الكعك وتذوقيه، فهو جيد الصنع يكاد يذوب في الفم ذوباناً!"

فردت ايول "سأعفيك من هذه المشقة وأقيلك مما تشعر به من حرج. وكل ما أطلبه منك أن توافق على هذا الزواج، وأنا كفيلة بأن أغريه به، وأن حمله على المثول بين يديك طالباً يدي".

"وماذا يكون من أمرك إذا تبين أن هذا الرجل الذي لا أعرف عنه شيئاً مخلوق متلاف تافه لا يصلح لشيء؟"

"نطرده حينئذ ونشيعه بآيات التحقير والازدراء! ولكنه قديس!"

"إذن امض إلى سبيلك، واتركيني لعرائس شعري وفني"

وما أن أرخى الليل سدوله حتى كان فيتالس قد لحق بأعقاب ايول في البيت المعهود. ولكن حالته هذه المرة كانت مختلفة تمام الاختلاف عما كانت عليه في المرات السابقة. كان قلبه يدق وهو يهم بلقاء الفتاة التي زعزعت كيانه وبلبلت أفكاره. ولم يشعر بذلك التغيير الذي طرأ عليه، فقد غاب عنه أن ثمة فارقاً كبيراً بين ابتسامة امرأة من بنات الهوى وابتسامة فتاة شريفة عفيفة.

على أنه أقدم على هذه المحنة وقصد إلى بيت الفتاة مدفوعاً بأنبل المقاصد، فقد أصر عزمه على أن يشفي نفسها من هذا الداء الذي لا يصيب إلا الفارغين الخليين. وطافت بذهنه فكرة غامضة أوحت إليه بأن ينتهي من هذه المهمة، ثم يستجم ويترك سبيل الاستشهاد الذي عاهد نفسه عليه، ذلك أنه بدأ يشعر فجأة بالملل من هذا الجهاد العنيف.

ولكن هيهات! فقد كتب على هذا الراهب المسكين أن يباغت بشيء يصرفه في الوقت المناسب عن نيته ويحول بينه وبين بلوغ الغرض الذي وطن نفسه عليه. دخل الراهب الغرفة. فوجدها مفروشة بأجمل الأثاث والرياش مما ينم عن ذوق سليم ناعم لا تكلف فيه ولا بهرج، وانبعثت منها رائحة ذكية مغرية. وجلست ايول في كامل بهائها على فراش أبيض ناصع من الحرير الهندم الغض، واكتسى وجهها بمسحة من الحزن كأنها ملك يفكر ويتدبر، وبدا صدرها من تحت ثنايا ردائها يعلو

ويهبط كالزبد، وأضاء ذراعاها اللتان شبكتهما تحت نهديها بنور الحسن. على أن هذا السحر وهذه الفتنة قد برئتا من كل ما يخدش الحياء أو يخرج عن حدود الحشمة، فارتج القول على فيتالس وخانته بلاغته.

وقطعت ايول حبل السكون قائلة "لقد عقدت الدهشة لسانك يا راهبي الجميل، وتحيرت إذ رأيت كل هذه الأبهة والفخامة! ألا فلتعلم أنني أودع الآن نعيم الحياة الدنيا، كما أنني قد اعتزمت في الوقت نفسه أن أتخلص من هذه العاطفة التي لم يسعني للأسف إلا أن أشعر بها من نحوك. ولكن، لا مناص لك من أن تبذل غاية ما في وسعك لمساعدتي في ذلك على النحو الذي ارتأيته أنا وطلبت منك أن تلتزمه. والذي أقصده هو أن هذه المسوح التي تلبسها لا تؤثر في. ذلك أنني فتاة من فتيات هذه الدنيا، ولا يمكن أن يقنعني رجل من رجال الدين، ولا شفاء لي من الحب على يد راهب لم يكابد الهوى فعجز عن أن يدرك كنه حديثي. فإذا شئت أن تنقذ روحي وتبعث السكينة إلى نفسي وتسدد خطاي إلى طريق الخير ومرضاة الله فاذهب إلى الحجرة المجاورة، واخلع مسوحك، والبس لباس المدنيين، واظهر بمظهر أهل الدنيا، ثم اجلس بجانبي وتناول شيئاً من طعامي، وبعد ذلك يمكنك أن تفرغ كل جهودك وذكائك في انتزاع حبك من قلبي وهدايتي إلى طريق التقى والصلاح!"

ولم يحر فيتالس جواباً، وراح يفكر لحظة. ثم صح عزمه على أن ينهي جميع المشاكل التي تعترضه بضربة واحدة ومحاربة الشيطان بسلاحه، ومن ثم نزل على الرأي العجيب الذي أبدته ايول.

وهب فيتالس إلى الحجرة المجاورة، فوجد خادمين ينتظرانه، وقد أعدا له ملابس من الكتان الأرجواني اللطيف، وما أن ارتداها حتى بدا أطول قامة وازداد محياه نبلاً، فلما عاد إلى ايول بهرها منظره ولم تستطع أن تحول نظرها عنه، وصفقت بيديها طرباً.

ثم حدثت المعجزة، وطرأ على الراهب تحول عجيب. ذلك أنه ما أن جلس في زيه الدنيوي بجوار هذه الفتاة الفاتنة حتى تبدد ماضيه القريب كالحلم، ونسى كل شيء عن جهاده واستشهاده. ولم تفض الكلمات من فيه، بل أخذ يستمع في شوق ولهفة إلى حديث ايول التي كانت قد أمسكت بيده وأخذت تقص عليه قصته كلها، فأنبأته بحقيقة نفسها، وأين تسكن، وكيف هفت نفسها إلى صرفه عن الحياة الغريبة التي يحياها، وحمله على طلب يدها من أبيها، فيصبح زوجاً صالحاً يرضى عنه ربه. ثم حدثته حديثاً عذباً عن الحب السعيد الطاهر، وختمت حديثها بتنهدة عميقة عبرت بها عن بأسها من تحقيق هذا الحلم الجميل، وتركت له الخيار في أن يبدأ بإخراج هذه الأفكار من رأسها، على أن يملأ بطنه الخاوية أولاً بالطعام والشراب حتى يكون أقدر على الكلام والوعظ.

وعندئذ أومأت ايول إلى الخدم بتهيئة المائدة، فأحضروا قناني الشراب، وأتوا بسلة من الكعك والفواكه. ومزجت ايول كأساً من الخمر وقدمته له وهو صامت، ثم ناولته شيئاً من الطعام في رقة وحنان فزالت الوحشة عنه، وتذكر أيام صباه عندما كانت أمه تحنو عليه وتطعمه بيدها.

وأكل فيتالس وشرب، فلما فرغ، بدا له أن الوقت قد حان ليستريح من مهمته الطويلة الشاقة. ثم مال برأسه تجاه ايول، وراح في سبات عميق إلى أن طلعت الشمس.

استيقظ فيتالس من نومه فألفى نفسه وحيداً ولا حس في البيت ولا حركة. فهب مسرعاً، وروعته الملابس الفاخرة التي كان يرتديها، وانطلق يجري في أنحاء البيت صاعداً هابطاً كالمجنون يبحث عن مسوحه. ولكنه لم يعثر لها على أثر، وأخيراً عثر صدفة على كومة صغيرة من الرماد أطل منها كل مسوحه وقد أتت عليه النار أو كادت، فأيقن أن ايول قد احتفلت بإحراق هذه المسوح احتفالاً.

ثم انبعث فيتالس يفتح النوافذ المطلة على الشارع واحدة واحدة ويطل منها محاذراً، فإذا رأى أحداً يقترب بادر إلى قفلها. ثم ارتمى على الفراش الوثير مسترخياً ناعماً كأنما نسى فراش الراهب الخشن. ثم هب من رقدته، وأصلح من هندامه، وتسلل إلى باب الخروج قلقاً متوفزاً، وتردد لحظة ثم فتح الباب على مصراعيه، وخرج إلى العالم الفسيح رجلاً فخم اللباس جليل المنظر، فلم يعرفه أحد، وظن كل من رآه أنه سيد من الأجانب وفد على الإسكندرية ليقضي فيها أياماً في مرح وسرور.

ولم يلتفت فيتالس يمنة ولا يسرة، وإلا لرأى ايول على قمة بيت أبيها ترقب المنزل المعهود. وسار الراهب إلى الدير لا يلوي على شيء، حيث كان الرهبان ورؤساءهم مصممين على طرده من زمرتهم، فقد طفح بهم الكيل ورأوا أن وجوده بينهم يدنس شرف الكنيسة. فلما أبصروه

مقبلاً عليهم في هذا الزي الفخم تميزوا من الغيظ وأغرقوه بالماء. ودفعوه إلى خارج الدير بصلبانهم ومكانسهم وكل ما وقع في أيديهم!

وكان مثل هذا البلاء قميناً بأن يفعم قلبه بالسرور، لأنه كان يعده آية من آيات استشهاده. أما الآن فقد ضحك في سره، ضحك لسبب آخر غير هذا السبب. ثم دار بأسوار المدينة دورة أخرى، وترك عباءته الحمراء تعبث بها الريح. وهب من الأرض المقدسة نسيم عليل حمله البحر المتلألئ، على أن فيتالس كان قد انصرف إلى شئون الدنيا، فرجع على أعقابه فجأة وضرب في شوارع المدينة المزدحمة ميمماً شطر بيت ايول، ونزل على إرادتها.

وغدا فيتالس رجلاً مدنياً كاملاً مهذباً، وزوجاً صالحاً بقدر ما كان شهيداً معذباً. ولما تبينت الكنيسة حقيقة أمره حزنت على فقد هذا القديس حزناً شديداً، وحاولت بكل ما وسعها أن تعيده إلى حظيرتها. ولكن ايول استمسكت به، وعرفت كيف تحوطه بعنايتها، وحراستها!

مدام بوفاري

للكاتب الفرنسي/ جوستاف فلوبير

جوستاف فلوبير من أعظم الكتاب الذين أنجبتهم فرنسا، وهذه القصة وإن كانت أول قصة إبداعها فلمه إلا أنها أروع قصصه جميعاً. وقد حلل فيها شخصية امرأة من طراز خاص تحليلاً دقيقاً أضاف به شيئاً جديداً إلى علم النفس. فأصبحت البوفارية علماً على ذلك النوع من النساء اللائي يسرن حياتهن حالمات بما سيحدث وبما ينبغي أن يحدث .. ولكن هيهات أن يحدث ما يطوف بأحلامهن! وليس معنى هذا أن قصة مدام بوفاري قصة بعيدة عن الواقع، بل هي قصة واقعية منتزعة من صميم الحياة في بلدة من بلدان الريف الفرنسي.

أمَّا وشارل

نشأت " أمَّا" في مزرعة "له برتو" في رعاية أبيها الفلاح الميسور الحال السيد "رووِل". فلما اشتد عودها وبلغت الثالثة عشرة من عمرها أرسلها أبوها إلى دير في روان. ورضيت أمَّا أول الأمر عن حياتها في هذا السكون الساحر، ونعمت بعشرة تلكم الراهبات الطيبات القانتات وما امتزن به من سماحة الطبع ورقة الحاشية ودماثة الخلق. وكان الجلال البادي على المذبح، والجو الحالم الذي يضفيه عليه البخور المنبعث من بين جنباته يسمو بها إلى آفاق علوية من الحب الروحي والطمأنينة النفسية. وفتنها

الاعتراف وما يجري فيه. فدفعها ذلك إلى أن تتلمس لنفسها الهفوات والزلات. وسمعت الوعاظ وهم يرددون كلمات مبهمة كالخطبة والعروس والزواج الأبدي، فهامت نفسها في واد من الأحلام الجميلة.

وكانت تتردد عليهم في الدير امرأة عجوز تقضي لهن بعض حوائجهن، وتدفع إليهن خلسة بقصص تتحدث عن سيدات يهربن من عيون الناس إلى الخمائل مع عشاقهن ويغبن في نشوة طويلة من الوجد والصبابة، وتروي خير أفاعيل الغرام في زوايا الغابات. والأحراج، وتصف عهود الحب، ودموع العاشقين، وتأوهات المغرمين المدنفين، وتردد مغامرات فرسان في شجاعة الأسود ووداعة الحملان.

وجاء أبوها ليخرجها من الدير، فلم تأسف عليه كثيراً. ذلك أنها كانت قد برمت بحياة الدير الرتيبة المملولة على ما فيها من سحر وجلال.

وعادت أمَّا إلى بيت أبيها، وكانت أمها قد ودعت الحياة من سنتين، فشغلت نفسها بتدبير شئونه، ورضيت بحالها أول الأمر، وثم سئمت المنزل وشئونه المتشابهة التي تجري على وتيرة واحدة فحنت إلى الدير.

أما شارل فقد نشأت في كنف أمه. وكان أبوه يعمل في خدمة القسم الطبي بالجيش، ثم خرج منه لشبهات حامت حوله، وعاش عيشة المتبطلين على مهر زوجته، ولم يكن بالقليل. وتولت الأم تربية شارل الابن الوحيد الذي رزقهما الله به.

ودخل شارل المدرسة فأحاط به أفران أغنى منه، وأفران أذكى

وأبرز، فأخذوا يسخرون من لهجته الريفية، ويهزؤون بملابسه. ثم استمر على انزوائه أثناء دراسته للطب، فلم يكن يعرف كيف يسوس امرأة، أو يتخذ خليلة، أو يغري فتاة من فتيات الحوانيت بالخروج معه في سهرة من السهرات. فلما أتم دراسته الطبية زوجته أمه الحريصة المدبرة من أرملة ميسورة الحال قبيحة الصورة عاشت معه أربعة عشر شهراً، ثم تركته إلى عالم غير هذا العالم. وفتح شارل عيادة في توست، وهي بلدة صغيرة من أعمال نور ماندي، وأخذ يمارس فيها مهنة الجراحة.

وفي ذات صباح أوقظ شارل من نومه مبكراً ودعى إلى مزرعة له برتو ليجبر كسراً أصاب رجل صاحب المزرعة السيد روول .. وأقبل الجراح الشاب على الرجل العجوز، فوجد الكسر بسيطاً، وأن مهمته في تطبيبه هينة. وشرعت أمَّا تعاونه في أعداد الضمادات، فعجب لأظافر يديها المصقولة الناصعة البياض، وراعه منها شدة سواد عينيها ونظرات متفرسة جريئة تنطلق من تحت أهدابها الغزيرة، وشعر كستنائي يداعب وجنتيها، ووجه شاحب يتورد إذا انفعلت، وفم واسع دقيق التكوين، وشفة فيها أسى وفيها حسرة.

وأحست أمَّا بعد زيارة الطبيب الأولى أنها فتاة قد تكشفت لها حقائق الحياة، فلم يبق لها حقيقة تريد أن تعرفها، أو شعور جديد تحن إلى الإحساس به. فلما تكررت زياراته وطالت تغيرت نظرتها، وتبلبل شعورها، وحسبت أن اضطراب خاطرها ما هو إلا بشير بالحب الذي قرأت عنه كثيراً، ونذير بأن هذا الحب قد عرف أخيراً الطريق إلى قلبها.

وزار السيد رووِل الطبيب في بلده، ونفحه خمسة وسبعين فرنكا من الفضة، وأهداه ديكاً رومياً جزاء له على تطبيبه، وأراد هذا الرجل العجوز الطيب القلب أن يخفف عنه فجيعته في وفاة زوجه فدعاه إلى مواصلة زيارته في مزرعته له برتو. وصادف ذلك هوى في نفس الطبيب، فشد رحاله إلى المزرعة وأمضى مع أصحابها في عيد القديس ميخائيل ثلاثة أيام سوياً. وتوطدت الصداقة بين أمَّا وشارل، وأخذ شارل يمنى النفس باليوم الذي تزف فيه إليه. وفاتح أباها في ذلك، فأبدى الرجل موافقته وعلق الأمر على رأيها هي. فعرض الطبيب عليها قلبه فاستمهلته.

وفي يوم من الأيام وقف شارل في الطريق المواجه للمزرعة يرقب نافذة المطبخ في بيتها واجف القلب ينتظر على أحر من الجمر الحكم له أو عليه فإذا به يسمع صرير النافذة وهي تفتح معلنة قبولها الزواج منه.

وحملها شارل إلى بيته في توست، حمل تلك الفتاة الرائعة الحسن البديعة التكوين. وكان كلما تذكر زوجته الأولى الباردة الطبع القبيحة الصورة ازداد افتتاناً بأمَّا، وأخذ يعنف نفسه لأنه كان يرى أن حبه لها مهما اشتد ضرامه لا يوازي ذلك النعيم الذي أفاءه عليه قربها منه ورضاها به. فوقف حياته عليها، وعبدها عبادة، وفنى فيها فناء حتى أصبحت نظرته للحياة لا تتعدى حدود قميصها.

وكانت أمَّا تعتقد قبل زواجها من شارل أن قلبها قد تفتح للحب فأسلمت له قيادها. ولكنها أخذت بعد زواجها منه تحس بأن شيئاً ما ينقصها. وشرعت نفسها القلقة تبحث عن معنى السعادة التي أبدعت في

وصفها الكتب التي قرأتها. وحنت حنيناً شديداً إلى الإحساس بالهيام الذي كانت تصبو إليه وهي بعد فتاة، ورنت إلى ارتياد آفاق النشوة التي تتطلع إليها العذراء في تهيب وإشفاق.

حاولت أمًّا أن تحمل نفسها على حبه. ولكنه لم يكن فتى أحلامها. كان لباسه عجيباً، وحديثه مألوفاً مملولاً لا يثير عاطفة ولا ضحكاً ولا تفكيراً. فقد كان في نظرها يخالف الصورة التي رسمتها للرجال في أحلامها. كانت ترى أن الرجل ينبغي أن يكون أريباً يفهم كل شيء، خبيراً يحيط بألوان النشاط في الحياة، ماهراً يستطيع أن يعبر بها بحر الهوى والصبابة إلى شاطئ الأمان، ويهديها إلى مناعم العيش، ويكشف لها مغاليق كل سر.

ولم تستسلم أمًّا لليأس، بل أخذت تروض نفسها على حبه. فكانت تخرج معه في الليالي القمرية إلى الحديقة. تساقيه الغرام، وتروي له أرق الشعر. وتغني له أشجى الأنغام وأعذب الأغاني، لعلها تستطيع أن تبدد ذلك الكابوس الذي أخذت يعصر قلبها عصراً، أو تخرج بشارل عن تلك العامية التي تسيطر على تفكيره، وتسمو به على هذا النهج البسيط المألوف الذي يسير عليه أوساط الناس .. ولكن هيهات!

وأخذت حماتها الصارمة المدبرة الغيور ترقب كنتها الشابة الجميلة المترفة بنظرة لم تستطع أن تخفي ما فيها من سخط واستنكار. صحيح أن أمًّا كانت ربة بيت ماهرة، إلا أنها كانت تجنح إلى التبذير. وقد حرصت كل منهما على العلاقات الطيبة التي كانت تربط بينهما في

الظاهر حتى فاض الأمر بأمَّا فصرخت قائلة "رباه لماذا تزوجت!"

ثم تدخل القدر ليتم لعبته. ذلك أن شارل وأمَّا داعياً إلى حفلة راقصة في فوبيسار عزم على إقامتها المركيز داندر فيير الذي كان حريصاً على الفوز بمقعد في مجلس النواب، فأراد أن يتلطف مع جميع جيرانه صغاراً وكباراً. وكان شارل قد طببه من قبل وأعجب المركيز بأشجار الكرز التي في حديقته وامتدح زوجة الطبيب الحسناء وصباحة وجهها.

وشغلت أمَّا بالحفلة، وأخذت في الليلة المحددة لها ترتدي ملابسها وتتأنق في زينتها، وأقبل عليها شارل يشكو من ضيق سراويله وأنها ستعوقه عن الرقص. فردت عليه أمَّا قائلة "أمجنون أنت، أنهم سيضحكون منك إذا رقصت. ومع ذلك فليس ينبغي للأطباء أن يرقصوا" فأخلد شارل إلى الصمت، وشرع يرقب زوجته في افتتان بعد أن أتمت زينتها وارتدت رداء أصفر شاحباً مطرزاً بالورد، ولم يتمالك أن طبع قبلة على كتفها، فصاحت به نافدة الصبر "دعني وحدي، فأنت قمين بأن تفسد كل شيء".

وشاء القدر أن تكون حفلة المركيز الراقصة وأهم حادث في حياة أمَّا. فقد رأت أحلامها تتمثل في عالم الحقيقة أخيراً، وشاهدت بعيني رأسها كيف يكون البذخ والأبهة، وكيف تكون الحياة المترفة الناعمة.

ودار الرقص، وكانت هي من نصيب شاب فخم اللباس ينبعث من شعره عبير خفيف لطيف، وأخذ يراقصها رقصة الفالس في خطوات رشيقة.

واستحوذت الحفلة على تفكيرها، ولم تبارح خيالها قط. وزاد برمها

بحياتها، وأصبحت شكسة الخلق، متقلبة الأهواء، وعلا وجهها صفرة وشحوب، وازدادت ضربات قلبها، فكانت حيناً تهذي هذيان المحمومين، وحيناً تخلد إلى الصمت وتستغرق فيه، وكثرت شكواها من توست ومن فيها. وعادت إلى المنزل في ليلة من الليالي فوجدته مرتباً يشيع فيه الدفء ويرفرف عليه جو من الاطمئنان والسكينة، إلا أنها كانت قد سئمت زوجها، وانتهت إلى أنه رجل تافه لا يملأ حياة امرأة مثلها، فعمدت إلى درج من الأدراج وأخرجت منه باقة عرسها، وألقت بها إلى نار المدفئة، وأخذت ترقب النار وهي تأتي عليها في هدوء.

وارتاع شارل لما أصاب زوجته من انهيار في صحتها، فقرر أن ينتقل إلى يونفيل لاباي، ولم يكن هذا القرار بالأمر الهين، لأنه كان قد اكتسب سمعة طيبة في توست، ونجح في ممارسة مهنته فيها.

ليون ورودلف

تركت أمَّا بلدة توست وهي حامل. وكان الليل قد أرخى سدوله عندما بلغ الزوجان يونفيل لاباي، وهي قرية كبيرة على مسيرة عشرين ميلاً من روان. وقد حفل خان الأسد الذهبي أكبر خانات هذه القرية بأعيانها الذين أقبلوا للاحتفاء بالسيد بوفاري وزوجته وتناول العشاء معهما قبل أن يذهبا إلى بيتهما الجديد. والتأم شمل هؤلاء الأعيان، وكان من بينهم السيد هوميه الصيدلي، والسيد ليريه تاجر الأصواف والأقمشة الذي جمع ثروة لا بأس بها من تجارته، والسيد ليون ديبوي كبير كتاب المحامي جويومين، وكان ليون شاباً صبوح الوجه مهذباً رقيق الحاشية.

وقد سبب هذا الانتقال كثيراً من المتاعب لشارل، فقد كلفه مالاً ليس بالقليل علاوة على ما أنفقه على ملابس أمًّا، ثم أن الزبائن لم تقبل على عيادته سريعاً. على أن شارل كان إذا تطلع إلى وجه زوجته امتلأ قلبه حبوراً وسروراً، وذاب حنيناً إلى طفله المرتقب، وتاه فخراً بأمًّا التي سوف تهبه ما تقربه عينه وتطيب به نفسه. أما هي فقد حارت في أمر نفسها، ثم تغير هذا الشعور، وانتابها شوق شديد إلى الإحساس بما تحس به كل أم.

كانت تتمنى أن يهبها الله ولداً ذكراً أسمر اللون قوياً فيعوض عليها ما فات من حياتها وما مر عليها من أيام لا لون لها ولا طعم.

ولكنها ولدت بنتاً، اختارت لها اسم برت، وهو اسم سيدة شابة أعجبت بها في الحفلة الراقصة التي أقامها المركيز داندر فيير. ولم يستطع أبوها السيد رووِل أن يحضر تعميد الطفلة، فحل محله الصيدلي هوميه وغدا لها اشبينا. وكان ليون يقيم مع هذا الصيدلي يساعده في عمله قبل أن يتم دراسته القانونية في باريس.

وتوطدت الصلة بين شارل وهوميه كما توطدت بين ليون وأمًّا ذلك أن أمًّا وجدت في ليون ما يوائم مشاربها من كل ناحية. فقد ملست فيه هياماً شديداً بشوارع باريس، وازدراءً لأهل الريف وما اتسموا به من خشونة وسماحة. كان يحب الشعر والأغاني الألمانية الشجية، وكان العالم الذي يؤثره ويهواه عالماً حافلاً بالممثلين والموسيقى والملابس الفخمة ومناعم الحياة.

ضاق ليون إذن بحياة الريف. وما أن حلت فيه هذه المرأة الشابة الفتانة الحالمة حتى أحس بانقلاب يطرأ على حياته.

وتردد ليون على بيت الطبيب موزع القلب مبلبل الخاطر يود لو أتيح له أن يبث أمًّا هواه ويخشى أن يكون مثل هذا الحب مستحيلاً تقف دونه صعاب وعقبات. على أنه كان يلتقي بها كل ليلة في بيت السيد هوميه، ويجلسان بجوار المدفأة يتطارحان الشعر ويقرآن القصص الغرامية. فازداد قلباهما قرباً، ولاحظ ذلك شارل فلم تلدغه عقارب الغيرة، ولم يغضب لهذه العلاقة التي كانت تنمو وتزدهر.

وأحسنت أمًّا بدبيب الحب يغزو قلبها، وأيقنت أن ليون يبادلها حباً بحب وغراماً بغرام، فتملكها الأسى وتمنت لو أن الأقدار قد حالفتها وتزوجت من ليون. ولكن ما الذي يحول بينهما ويقف في طريقهما؟

وقد بدل شعورها بالحب حياتها تبديلاً عجيباً. فهجرت الموسيقى وتفرغت لشئون المنزل وبالغت في إحاطة ابنتها وزوجها برعايتها وعطفها. كانت في الظاهر وديعة رقيقة هادئة متحفظة، ولكن قلبها كان يتأجج بالسخط والحقد على شارل، لأنه كان يبدو غافلاً عما تعانيه من عذاب وآلام. ما باله هادئاً ساكناً بليداً لا يخاشنها ولا يضربها حتى تجد مبرراً لبغضه والانتقام منه! وكانت هذه الأفكار الشائنة تقض مضجعها في بعض الأحيان وتروعها.

وفزعت إلى الكنيسة تلتمس عندها السكينة والعزاء. ولكن القس كان غارقاً في عمله متعباً ضجراً فلم يكن لديه فسحة من الوقت يستمع فيها إليها، ولم يرزق من الحصافة ما يعينه على فهم إشاراتها الغامضة الخفية.

وأحسن ليون أن أمَّا امتنعت عليه واستعصمت فيأس منها وأشاح عنها، فمجدها بذلك تمجيداً وشبهها بالعذراء البتول. وضاقت به الحياة في القرية، فقرر أن يشد رحاله إلى باريس.

ووقفت أمَّا تودعه، وتنهد هو قائلاً "أستودعك الله" فترددت هي قليلاً، ثم رفعت رأسها فجأة، وتقاربا ثم مد ليون يده فمدت له يدها وحاولت أن تبتسم. ولما أحس براحتها الناعمة في يده تزلزل كيانه وذاب شوقاً ووجداً، ثم التقت عيونهما، ثم ولى.

وأثار رحيل ليون لغطاً بين أهل القرية المتعقلين المتحفظين، وأخذوا يتحدثون عن ضيق الشباب بالريف، وإيثارهم لحياة المدن وما فيها من مفاتن ومباهج. أما أمَّا فقد حز قلبها الفراق، واستسلمت للغم والحزن، وتملكتها الوساوس والأوهام وزاد غياب ليون من فتنته في نظرها، فبدا لها أطول قامة وأرشق منظراً، وأشد سحراً. كان خياله ماثلاً أمامها يتعقبها في كل مكان تلوذ به. فجن جنونها ولامت نفسها أعظم اللوم لأنها لم تشجعه على حبها ولم تستسلم له. واستبدت بها الرغبة في اللحاق به إلى باريس والارتماء في أحضانه صارخة من أعماق قلبها "أنا لك، أنا لك" ولكن هيهات!!

ورانت على أمَّا الكآبة التي ظنت أنها قد انجابت عنها عندما غادرت توست. بل أحست أن حياتها في يونفيل قد غدت أحلك وأشد سواداً، فاعتراها شعور بأنها امرأة شهيدة كتب عليها أن تجتر آلامها، وتستغرق في أحزانها وأشجانها. فأخذت تحاول الهروب من نفسها،

وعمدت إلى التبذير، واشترت من الملابس والمجوهرات الشيء الكثير، وتورطت في ذلك تورطاً ساعدها عليه السيد ليريه، فكان يمدها بكل ما تطلب نسيئة، ولا يطالبها بالدفع فوراً. وقامت في نفسها رغبة إلى تعلم اللغة الإيطالية، واشترت معجماً يعينها على تعلم هذه اللغة.

على أن صحتها ذبلت واضمحلت، وأخذت تنتابها نوبات من الإغماء. فارتاع شارل وبعث إلى أمه مستعجلاً قدومها كي تبذل له النصيحة، فحضرت، وما أن رأت أمَّا حتى قالت لشارل في برود أن البطالة قد أفسدت زوجتك وأن العمل كفيل بأن يبدد أوهامها السخيفة. وافترقت الزوجة وحماتها في قلب كل منهما ما فيه.

وفي يوم من الأيام كانت أمَّا جالسة إلى النافذة ترقب الطريق، فإذا بها ترى سيداً مرتدياً صدارا من المخمل الأخضر، وقفازاً من الجلد الأصفر، وقد سار خلفه قروي مثقل الرأس بادي الغم. وقد اتضح أن هذا السيد هو رودلف بولا نجيه صاحب ضيعة لاهوشيت القريبة من يونفيل. كان رجلاً أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره يقدر دخله بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فرنك في العام.

وأقبل رودلف على الطبيب، وشرح له ما يعانيه تابعه. فأجرى له شارل جراحة صغيرة بمساعدة أمَّا.

وما أن أفاق القروي حتى وضع ردولف أجر الطبيب على المائدة، ثم التفت إلى أمَّا وعبر لها عن سروره بالفرصة التي أتاحت له التعرف بها. وقفل راجعاً إلى ضيعته ولسان حاله يقول: "يا لها من زوجة رائعة

الحسن! ما أجمل أسنانها وما أشد سواد عينيها! أما قدماها الصغيرتان وقدها الأهيف فليس لها نظير إلا عند بنات باريس. ليت شعري من أين التقطها هذا الرجل التافه البدين! لا شك في أنه غبي أبله، ولابد أنها قد ضاقت به وبرمت بالعيش معه.

ما باله قد ترك أظافره تطول وتنسخ، وذقنه ينمو ويسترسل. أغلب ظني أنه يتركها قعيدة المنزل سعياً وراء زبائنه. يا للشابة المسكينة! إنها تتلهف على الحب تلهف السمكة إلى الماء بعد أن أخرجت منه!"

كان رودلف حاد المزاج عارمه سديد النظر ثاقبه. فرأى أن ثمة عقبات تحول دون الاستحواذ على قلب أمَّا. ولكن عينيها كانتا قد نفذتا إلى قلبه نفوذ السهم. كان يعبد النساء الشاحبات، وكانت أمَّا امرأة شاحبة. فصح عزمه على امتلاكها، وعقد النية على اتخاذها خليلة.

وواتته الفرصة بأسرع ما يتصور فقد أقيم في يونفيل معرض زراعي أخذ الناس يؤمونه زرافات ووحدانا. ولم يجد رودلف صعوبة في تجديد معرفته بآل بوفاري. وكان من الطبيعي أن يصحب أمَّا ويجول بها في أرجاء المعرض، فقد كان ملماً به غاية الإلمام، خبيراً بالماشية وأحوالها.

وأخذ رودلف بيد أمَّا وصعد بها إلى الطابق الأول، وقادها إلى غرفة مجلس الإدارة، وجلسا إلى نافذة مفتوحة يسمعان منها إذا شاءا خطبة رئيس المعرض، ويطلان على المعروضات. وبدأ يحدثها حديثاً عاماً فيه طلاوة وفيه سحر، ثم تطرق بلباقة إلى شئونه الخاصة. فأخذ يبثها ما يلاقيه من وحدة وعذاب، ويصف لها لواعج نفسه، ويقول لها أنه أصبح

فريسة للأحلام والأوهام والرغبات. وشكا إليها من الملل الذي ينغص عليه أيامه ويصيب بالوحشة لياليه. ثم نظر إليها نظرة فيها ألم وحسرة، وعبر لها عن تعطشه إلى الحب، الحب الخالد الذي يسمو فوق ما تواضع عليه الناس من قواعد الخلق، الحب الذي هو أجمل شيء في الوجود، الحب الذي يدفع إلى البطولة، ويخلق الحماسة، ويوحي بالشعر والموسيقى، ويهب الإنسان كل شيء.

كان رودلف جالساً على كرسي صغير عند قدمي أمَّا، وقد شبك ذراعيه حول ركبتيه، ورفع وجهه نحوها، والتصق جسمه بجسمها وفاح العبير من شعره فذكرها بذلك العبير الذي كان يتضوع من شعر الكونت وهي ترقص معه نشوى رقصة الفالس في الحفلة التي أقامها المركيز داندر فيير، وتراءت لها العربة التي أقلت ليون من يونفيل وصور لها الوهم أن الذي يجلس عند قدميها هو ليون نفسه لا رودلف.

واستمر رودلف يطارحها الهوى، ويقول لها أن لقاءهما لم يكن وليد الصدفة. بل كان من عمل الأقدار.

ثم أمسك يدها فلم ترده، وكانت شفتاهما محمومتين بالرغبة، وتشابكت أيديهما، وارتفعت الكلفة بينهما.

وانقطع رودلف عن زيارتها ستة أسابيع. وكان يعلم، وهو الخبير بالقلوب، أن الفراق يزيد الحب اشتعالاً. وقد صدق حدسه. ذلك أنه ما أن دخل على أمَّا وهي جالسة في غرفة الاستقبال في منزلها حتى وجدها شاحبة الوجه قد نحل جسمها. وأقبل شارل، وتحدث معه رودلف قائلاً أن

ركوب الخيل قمين بأن يرد على زوجته عافيتها. وعارضت أمَّا في ذلك معارضة شديدة، واستعصمت بآخر حصن من حصون التصون والعفة متعللة بأنها لم تعتد ركوب الخيل. بيد أن شارل أصر فانهارت مقاومتها.

وحضر شارل إلى منزل الطبيب ومعه جوادان كريمان، واصطحب أمَّا، ثم انطلقا في رياضتهما ميممين شطر الغابة. وما أن بلغا منتصف الطريق حتى ترجلا عند فرجة في الغابة، وجلسا على جذع شجرة هاوية. وبدأ شارل يحدثها بحبه، فارتاعت أمَّا وهبت واقفة. فهدأ شارل من روعها، ولف ذراعه حول خصرها، وأدناه منه فصاحت "أنا مخطئة. أنا مخطئة، أنا مجنونة إذ أستمع إليك".

فرد شارل "أواه يا أمَّا! لماذا لماذا؟"

فهمست "أواه يا رودلف!" ومال رأسها على كتفه، ثم رمت بعنقها الأبيض إلى الوراء في شبه غشية، وفاضت دموعها، وانتفضت، ثم أخفت وجهها بيديها، وبدا أنها راحت في سبات عميق.

وعاد شارل أمَّا إلى يونفيل بعد انقضاء الهزيع الأول من الليل. وقد أخبرها شارل أثناء العشاء بأنه اشترى لها فرساً لطيفاً راجياً أن يدخل بذلك السرور إلى نفسها. فأحنت رأسها علامة على الرضا، ثم انفلتت إلى غرفتها بعد انتهاء العشاء، وأقفلت بابها دونها، ثم أخذت تتطلع إلى وجهها في المرآة، وأخذت تحدث نفسها قائلة "لقد وجدت الحبيب، لقد وجدت الحبيب!" وعجبت أمَّا من أمر نفسها، وأحست كأنما قد عاودها الشعور الذي تحس به العذراء إذا ما غزا الحب قلبها البكر، فانطلقت من سجنها،

وانهارت أمامها الحواجز، فجرفها تيار الهوى والغرام.

وأخذ الحبيبان يتبادلان الرسائل كل يوم، ولكنها كانت تشكو دائماً من قصر رسائله وإيجازها. وفي ذات صباح خرج زوجها مبكراً، فانتابها حنين قوي لرؤية رودلف، فتسللت إلى الحقول، وانطلقت تسير مسرعة دون أن تلتفت وراءها، وبلغت منزل حبيبها وقد بللها الندى، وارتمت على سريره.

وكان رودلف يأتي أثناء هذه الشتاء كله إلى حديقة منزلها مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع. وتنتظر هي، وقد برح بها الوجد، إلى أن يأوي زوجها إلى فراشه، ثم تأخذ بيد حبيبها إلى عش غرامهما، في الغرفة العتيقة حيث كان ليون يتعبد في محراب هواها طوال أمسيات الصيف، ولكنها كانت قد نسيت ليون، وعادت ذكراه لا تطوف بخيالها.

ومرت برودلف لحظات كان يشعر فيها بأن أمًّا قد أطلقت لعواطفها العنان، وأخذت تصر إصراراً على أن يتبادلا خصلات الشعر ولطيف الهدايا. بل بلغ بها الأمر أن سألته مرة أن يهديها خاتماً من خواتم الزواج. ومع ذلك فقد كان يحس إحساساً قوياً بأنها ما زالت فتانة، وأنه لم يصادف إلا القليل من النساء اللائي يماثلنها في تفننهن في ضروب الحب. وكان الحب الذي من هذا الطراز يحمل في نظره من الطرافة والجدة ما يثير النفس ويلهبها، ويرضي شهواته ويتملق كبرياءه على أن انطلاقها في الاستسلام له كان يخدش حياءه وإن كان يبتهج له من حبة قلبه لأنه موضوع هذا الاستسلام وهدفه وغايته. فلما أيقن أنه قد شغفها

حباً خفتت نجواه، وقلت ملاعباته، وأصبح لا يخفي عدم اكتراثه بها وانصرافه عنها.

وتملكها الندم، وفاضت بها الكأس حتى أنها أخذت تسائل نفسها: لماذا تكره شارل؟ ولم لا تروض نفسها على حبه؟ وتصادف أن شارل كان يفكر آنئذ في طريقة جديدة يعالج بها قدم هيبوليت الكليلة، وكان هيبوليت هذا خادم إسطبل الخان المعروف بالأسد الذهبي، فشجعته أمًّا على إجراء هذه الجراحة، فأقدم على ذلك متردداً وجلاً، وباءت الجراحة بالفشل الذريع. واستدعى جراح مشهور فأنقذ الخادم ببتر ساقه حتى الركبة.

وهاجت شجون أمًّا، وغضبت غضباً شديداً من فعلة زوجها، فعاودها الحنين إلى رودلف وتهالكت عليها ممعنة في هذه العلاقة الآثمة لا تحفل بكلام الناس ولا تتورع عن الخروج من بيت حبيبها في وضح النهار. وأخذت تغدق عليه الهدايا الغالية النفيسة غير عابئة بتراكم الديون عليها وبالهوة التي كان يحفرها لها المرابي ليريه. بل لقد بلغ بها الأمر إلى حد الوقوف في سبيل تسديد صك يدين من ديون زوجها. وانساقت أمًّا في ذلك فكانت توقع لليريه على صكوك بديون جديدة من غير علم زوجها لتشتري سكوته.

وأقبلت أم شارل لتعيش معها، فقام بينها وبين كنتها موقف عنيف مخيف. ذلك أن الأم كانت حريصة كل الحرص على سعادة ابنها فروعها سلوك زوجته.

وأحست أمًّا بأنها عاجزة عن العيش مع زوجها بعد ذلك، وتوسلت إلى

رودلف أن يقربها إلى بلد بعيد ينعمان فيه بحبهما فلا ينغص صفوهما منغص.

ولم تصح نية رودلف على مطاوعتها، ولكنه كان حائراً يتلمس الأسباب المقنعة للخروج من هذا المأزق. فتركها تعد معدات السفر، وفي الموعد المضروب بعث إليها برسالة يبدي فيها أسفه لأنه لا يستطيع أن يجاريها في مغامرة ستندم هي عليها أشد الندم إن عاجلاً وإن آجلاً.

فلما بلغتها هذه الرسالة برح بها اليأس، وهمت بإلقاء نفسها من النافذة، فحالوا بينها وبين ما تريد. ووقعت فريسة حمى خطيرة في المخ حتى ظن ألا قيامة لها بعدها.

ومرت بشارل فترة هي الجحيم أو أشد سعيراً، فقد خيل إليه أن زوجته الحبيبة التي لا حياة له بدونها أوشكت أن تذهب عنه إلى غير رجعة وتراكمت على رأسه الديون، ولم يكن لديه من المال ما يفي بها، فاستدان ليسددها بشروط مجحفة.

غير أن أمًّا لم تمت. فقد دخلت في دور النقاهة بخطى وئيدة. وحرص شارل على الترويح عنها، فما أن استطاعت الخروج حتى أخذها إلى روان لتسمع أحد مشاهير المغنيين، والتقى شارل في المسرح بليون.

كان ليون قد أتم دراساته في باريس، وقبل العمل كاتباً في مكتب وكيل للقضايا في روان. وكان قد نضج بعض النضوج، واكتسبته مغامراته مع بنات الحوانيت في باريس ومغازلاته للطالبات من زميلاته شيئاً من الاعتداد بالنفس، ولكنه ظل على حيائه وخجله.

وكانت قد استقرت في مخيلة ليون طوال هذه المدة صورة لأمَّا لم تبرحها قط. كانت في نظره أملاً مبذولاً غامضاً يشبه ثمرة متدلية من شجرة غريبة تلوح له من بين ثنايا المستقبل.

صرعى الأقدار

واضطر شارل إلى العودة إلى يونفيل في صباح اليوم التالي، واستحث زوجته على البقاء في روان ليلة أخرى للتمتع بمشاهدة المسرح، فقبلت بعد شيء من الإلحاح، وفي المساء حضر ليون إلى الفندق الذي كانت تقيم فيه، وبثها حبه وغرامه، وكان في هذه المرة أوسع خبرة، وأقدر على اكتساب قلوب النساء. ولكن أمَّا صدته قائلة أن السن قد تقدمت بها، أما هو فمازال شاباً في مقتبل العمر. وضرب لها ليون موعداً في الكاتدرائية صباحاً قبل أن يغادر الفندق.

وعكفت أمَّا في المساء على كتابة رسالة طويلة له قالت فيها أن من رأيها ألا يتقابلا ثانية، لأن هذه المقابلة كفيلة بأن تجر عليهما الشقاء والتعاسة. وحارت أمَّا في أمر توصيل هذه الرسالة إليه، واستقر عزمها على أن تسلمها له يداً بيد في الكاتدرائية في الموعد المضروب.

وتقابلا في الكاتدرائية، وأرادت أن تسلم له الرسالة فأمسك. وفزعت أمَّا إلى المحراب وراحت تصلي. وما أن انتهت من صلاتها حتى أخذ ليون بيدها ونادى عربة ودفعها إليها، وانطلقت بهما في الشوارع إلى غير غاية.

وفي العربة أصبحت خليلته!

وكان شارل في هذه المرة أيضاً هو الذي هيأ لزوجته سبيل الهوى الآثم. وأحس ليريه المرابي أن الزوجين قد وقعا في قبضته، وهداه دهاؤه الشيطاني إلى أن خير طريقة لاسترداد ماله هو أن ينصب شباكه حول أمًّا، فاقترح عليها أن تحصل على توكيل يخول لها تسوية هذه الديون نيابة عن زوجها. وأدركت أمًّا أن هذه المسألة من المسائل القضائية التي تحتاج إلى استشارة خبير فيها، وأبدت لزوجها حيرتها: إلى من تذهب؟ وأي رجل تستشير؟ ووقع الرجل الساذج في الفخ، وأشار عليها بأن ليون هو الشخص الذي تلتمس عنده النصيحة.

وهرعت أمًّا إلى روان وقابلت ليون، وقضت معه ثلاثة أيام في نشوة واستمتاع.

ولما عادت إلى يونفيل شكت من أن انصرافها عن العزف على البيان قد أصاب أناملها بالتصلب، وأنها في حاجة شديدة إلى تلقي دروس في العزف، فاقترح عليها شارل أن تتلقى هذه الدروس في روان.

واستأجرت هي وليون حجرة في فندق بروان كانت في نظرهما العش والمأوى، وكانا ينعمان فيها كأنهما في بيتهما.

وعادت حياة أمًّا المنزلية في يونفيل إلى سابق عهدها. فكان اهتمامها بشئونها يماثل اهتمامها عندما كان غرامها برودلف في أبانه. فبدت فاتنة ساحرة، وأقبلت على زوجها إقبالاً جعله يعتقد أنه أسعد رجل في العالم.

وكانت أمًّا كلما مر الزمن أحست بحاجتها إلى معين خارجي يساعدها على إبقاء نار حبها متأججة لا يخمد لها أوار. كانت كل مرة تذهب فيها إلى روان تمني النفس بالنعيم المقيم فإذا عادت تملكها شعور بأن ما مر بها ليس إلا شيئاً مألوفاً لا جدة فيه ولا طرافة. وأقلقها هذا الشعور، وولد في نفسها أملاً جديداً، فكانت في الرحلة التالية تذهب إلى حبيبها أكثر شوقاً وأشد صبابة. وتنزع ملابسها في ضيق ونفاد صبر حتى لتكاد تمزقها تمزيقاً، ثم تتجرد تجرداً وتسير عارية على أطراف أصابعها حافية القدمين، ثم تقصد إلى حبيبها شاحبة الوجه جادة العزم، وترتمي بحركة واحدة على صدره مرتعشة الأوصال تنتفض.

ويسكت ليون فلا يسألها لأنه كان يرى، وهو الخبير بأفانين الهوى، أنها تشرب الآن كأس الحب والعذاب حتى الثمالة. ولكن الأمر الذي كان يضايقه هو أن شخصيته أخذت تفنى فيها فناء، فأصبح هو خليلها وكان يود شأن غيره من فرسان الحب أن تكون هي خليلته. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان مخدومه يحذره من هذه العلاقة وينذره بأنها كفيلة بأن تفسد عليه مستقبله.

ولم تكن أمًّا راضية بحالها، فقد كانت تعجب من هذه الحياة وتقلبها. وأخذت تسائل نفسها: أكلما فزعت إلى شيء أتكمل به أنهار من تحتي. أهكذا الحياة، تنقلب وعودها أوهاماً، وتحمل كل بسمة من بسماتها عبوساً وتجهماً؟ يمر بك السرور فتقبل عليه، فإذا اللعنة تجول في حواشيها! تمني نفسك بالنعيم المقيم فإذا ارتويت منه عفته ومللته،

ويغزو الحب قلبك فتحس في حلاوة قبلاته بمرارة الحنين إلى نشوة أبقى وأخلد!

وعادت أمَّا من روان في ليلة من الليالي فوجدت في بيتها بيونفيل إنذاراً بدفع مبلغ ٨٠٠٠ فرنك في ظرف أربع وعشرين ساعة وإلا فلا مناص من الحجز على البيت.

وتوهمت أمَّا في أول الأمر أن هذا الإنذار لعبة من ألاعيب ليريه. ولكنها أيقنت بعد ترو أن إنفاق المال يغير حساب والاستغراق في الديون قد أوقعها في براثن هذا المرابي العنيد.

وصدمتها الحقيقة السافرة أخيراً، فروعت وتزلزل كيانها، ذلك أنها عرفت أن شارل لا يلبث أن يرى المحضرين يحجزون على متاعه ويجردونه من بيته، فيتبين أنها هي السبب في كل هذا الخراب الذي حل به.

وهرعت أمَّا إلى ليريه وجثت أمامه على قدميها محاولة أن تستلين قلبه، ولكن هيهات! وفزعت إلى ليون فاستهول المبلغ.

وقصدت في ساعة يأسها إلى المحامي الشيخ السيد جويومين، فلم يرفض معونتها، وإنما أخذ يبثها هواه، فانفجرت فيه قائلة "أنت تستغل موقفي يا سيدي أقبح استغلال. فأنا استحق الإشفاق، ولكني لا أعرض نفسي في السوق!"

وهداها التفكير إلى رودلف ناسية أنها إذا تقصد إليه إنما تعرض نفسها لموقف فيه من الدعارة ما أبته على نفسها وهي تغادر مكتب

المحامي الشيخ. وتلطف رودلف معها، وآنست منه استعداداً إلى استئناف علاقتهما القديمة، فلما كشفت له عن غرضها شكا لها الفقر وضيق ذات اليد!

وضاقت بها الأرض بما رحبت، ولم تجد إلا مخرجاً واحداً يخلصها مما هي فيه. فتسللت إلى بيت الصيدلي، وابتلعت شيئاً من الزرنيخ.

وعاد شارل إلى البيت فوجدها تكتب رسالة، وكان يبدو عليها الهدوء والسكون، ثم استلقت على السرير، ونامت، ثم استيقظت وأحست بمرارة في فمها. والعجيب أنها أخذت تدرس ما يطرأ على حالتها. ولم يكن الألم قد غشيها بعد. فقد كانت لا تزال تسمع طقطقة الخشب وهو يشتعل في المدفئة، والساعة وهي تدق دقاتها المنتظمة، وشارل وهو يتنفس مستلقياً على السرير. على أن الظمأ كان قد برح بها، فطلبت كوباً من الماء، ثم انتابها القيء فجأة.

كان شارل المسكين جاهلاً بكل ما فعلت، فأخذ يداعبها فندت منها صرخة حادة، فارتج عليه وارتاع ارتياعاً شديداً.

وأزرق وجهها وتفصد العرق من جبينها، واصطكت أسنانها، وأخذت تنظر فيما حولها نظرات زائغة لا معنى لها.

واستدعى طبيبان على عجل، فوقفا مكتوفي الأيدي، ذلك أن أمَّا أخذت تبصق دماً، وظهر على جسمها كله يقع سمراء، وشاع الألم المبرح في صرخاتها، وخفتت ضربات قلبها وتقطعت.

وحضر القسيس ليباركها في ساعاتها الأخيرة. ثم ودعت هذا العالم، وخمدت أنفاسها إلى الأبد. وأصر شارل على أن تدفن في ثوب عرسها، مرتدية حذاءها الأبيض، وأن يغيب معها إكليل من الأزهار، وأن يرسل شعرها على كتفيها.

وتردد شارل في فتح درج مكتبها السري احتراماً لذكراها. ثم تغلب على تردده آخر الأمر، وفتح هذا الدرج فوجد رسائل ليون كلها إلى زوجته. فإنجاب عنه كل شك هذه المرة. ثم كشف صندوقاً خشبياً مقفلاً ففتحه فعثر فيه على صورة رودلف ومن تحتها رسائله إلى أمَّا.

وعندئذ فقد شارل كل احتفال بالحياة، وأخذ يهيم على وجهه في الحديقة. وكان يخرج في بعض الأحيان مع ابنته الصغيرة قاصدين إلى المقبرة فلا يعودان إلا وقد جن الليل. وشاءت الصدفة أن يلتقي يوماً برودلف فاصفر وجه كل منهما، ولكن رودلف استطاع أن يتمالك نفسه، ودعا شارل إلى احتساء زجاجة من الجعة معه في الحان. فرضا شارل، وجلسا معاً، ثم قال له شارل في صوت حزين رقيق "أنا لا أحمل لك حقداً ولا موجدة، فقد كان ما حصل خطأ من أخطاء الأقدار!" ولأول مرة في حياته ارتفع شارل عن خلق عامة الناس وطبيعتهم!

وهكذا انتهت حياة شارل بموت أمَّا. فقد هجر الناس، وانزوى في داره ورفض أن يقابل مرضاه. وكان كل من يمر ببيته يراه في الحديقة مهلهل الشباب زرى الهيأة، أشعث أغبر زائغ النظرات يجوس خلالها بطيء الخطى يبكي وينتحب.

وفي أمسية من الأمسيات استبطأته ابنته، فذهبت إلى الخميلة التي اعتاد أن يجلس في رحابها تدعوه إلى تناول العشاء فوجدت رأسه مائلاً إلى الحائط وعينيه مغلقتين وفمه مفتوحاً، وفي يده خصلة طويلة من الشعر. فظنت الصغيرة أنه يضاحكها فدفعته بلطف فسقط على الأرض.

كان شارل قد ودع هذا العالم الفاني!

الخائن الأكبر

للكاتب الإنجليزي / رفائيل سباتيثي

نزل السير وولتر رالي إلى البر عند بليموث عقب رحلته المشئومة إلى ألدورادو، فوجد السير لويس ستوكلي ينتظره. ولم يكن في ذلك ما يدعو إلى العجب، فقد كان ستوكلي نائب أمير البحر في ديفون، وكان صديقاً حميماً لرالي تربطه به صلة القرابة والنسب. وتحير رالي في أمر ستوكلي، ولم يتبين الباعث الذي حدا به إلى انتظاره، وهل دفعته إلى ذلك مقتضيات وظيفته، أو صلة النسب التي تربطه به، أو أواصر الصداقة المتينة التي كانت قائمة بينهما؟ على أن أمارات الود التي أظهرها ستوكلي عند اللقاء، والكلمات المنطوية على الشهامة والنبل التي وجهها إليه عندما قصد به من بعد إلى بيت السير كرستوفر هير بالقرب من الميناء قد بددت شكوكه وأضاءت نور الأمل في قلب ذلك المغامر اليائس، فلم ير في وجه ستوكلي إلا القريب العزيز في وقت كان رالي محتاجاً فيه إلى معونة القريب ونصح الصديق.

ولعلك تعلم قصة السير وولتر الذي كان درة من درر البلاط في عهد الملكة الياصبات، وقد كان رالي قميناً بأن يزيد في بهاء بلاط جيمس ومجده لو لم يك هذا الملك وضيع النفس خسيساً لا يستطيع أن يقدر قيمة هذا الرجل وشأنه العظيم. وكان وولتر رجل بلاط،

وفيلسوفاً، وجندياً، وأديباً، جم النشاط فعالاً لا قوالاً. وكان إلى ذلك أعظم ناثر في زمنه، ومن أعظم أمراء البحر في عهده، وآخر من بقى من تلك العصبة المجيدة من الرجال التي كانت تضم دريك وفروبيشر وهوكنز، والتي رفعت إنجلترا إلى مقام السيادة في البحر وكسرت شوكة أسبانيا وأذلت كبريائها.

كان اسم رالي يدوي كالطبل في العالم كله وقد انعقد بلوائه مجد إنجلترا وعظمتها. كان مثل دريك يستثير كراهية الملك فيليب، ويلقي الرعب في قلبه وقلوب رعاياه. غير أن ملك الاسكتلنديين القذر الدنس الذي خلف اليصابات على العرش تجاهل هذا الرجل العظيم الذي ستظل ذكراه حية خالدة ما بقيت إنجلترا.

كان وولتر قد بلغ الخمسين من عمره، إلا أنه ظل مشرق الطلعة وسيماً أنيق الملبس. ولما مثل في حضرة جيمس حدجه بنظرة فيها تجاهل واستخفاف، وسأل "من يكون هذا الرجل؟" فأخبروه باسمه، فقال "لم أسمع به". وكان تجاهل جيمس نذيراً بما سيصيب رالي، فقد لفقت له تهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالإعدام بالرغم من تفنيده جميع الأدلة التي سيقت ضده. واكتفى جيمس بهذا الحكم، ولكنه تردد في تنفيذه، فقد كان يعلم أن لرالي أصدقاء كثيرين، وأن أعماله المجيدة ما زالت حية في نفوس الناس. ثم عمد إلى مصادرة أملاك وولتر الواسعة، وخلعها على أولئك الأوغاد من عصابته الذين كانوا سبة في وجه إنجلترا.

وظل رالي سجيناً في برج لندن ثلاثة عشر عاماً تنفيذاً لحكم

الإعدام الذي صدر عليه في سنة ١٦٠٣، على أنه كان ينعم بشيء من الحرية تزوره زوجته الحبيبة وأصدقاؤه المخلصون، ومنهم الأمير هنري ولي العهد الذي كان يمقت جيمس ولا يتردد عن أن يذيع في الناس أن أباه، وأبا وحده هو الذي يستطيع أن يحبس هذا الطائر الفريد في ذلك القفص. وكان السير وولتر رالي يقتل الوقت في سجنه بقراءة كتب الأدب والعلم وتأليف مصنفه الكبير "تاريخ العالم". وكانت الشيخوخة تزحف عليه زحفاً، ولكنها عجزت عن أن تخمد جذوة حماسته أو تصرفه عن تدبير الخطط والمشروعات. وتاقت نفسه إلى تنفيذها فأخذ يتحرق شوقاً إلى الخلاص من سجنه بأي ثمن. ويئس رالي من رحمة جيمس، فكد ذهنه وشحذ ذكاءه لتلمس وسيلة ينفذ بها إلى جيمس ويستثير بها ما عرف عن هذا الملك من شح وحب للمال.

وكان السير وولتر قد عرف بالحكمة والأقدام المأثورة عن أبطال المغامرات النهازين للفرص منذ أن بسط عباءته وجعلها بساطاً تسير عليه الملكة اليصابات. وواتته الفرصة عندما أدرك سوء حالة جيمس المالية من عبارة تفوه بها وزير ماليته ونوود عرضاً. فأذاع من فوره أنه يعرف منجم ذهب في غينا ألدورادو التابعة للأسبان. وآية ذلك أن رالي كتب عقب عودته من غينا سنة ١٥٩٥.

"وهنالك يقاتل الجندي في سبيل الذهب لا في سبيل المال، في حين أنه يعرض نفسه للتهلكة في حروب أخرى تقوم لأتفه الأمور، ولسوف يجد القواد والزعماء الذين يرومون الشرف والثراء مدناً جميلة

غنية في هذه البلاد، ومعابد كثيرة ازدانت بتماثيل من الذهب، وأضرحة متعددة حفلت بكنوز تتضاءل أمامها الكنوز التي عثر عليها كورتيز في المكسيك، وبتساور في بيرو".

ورد عليه ونوود مذكراً بأن حملات كثيرة أنفذت إلى هذه البلاد فلم تجد شيئاً مما يقول.

فقال رالي "إن السبب في ذلك هو أن الرجال الذين قاموا بهذه الحملات كانوا يجهلون هذه البلاد، ولا يعرفون فن الاندماج في أهلها. ولو سمح لي بالذهاب إليها لجعلت غينا في نظر إنجلترا كما لبيرو في نظر أسبانيا".

ونقلت هذه الرواية إلى جيمس في وقت كان يحتاج فيه إلى المال أشد الاحتياج فزاد جشعاً على جشع. وأضاف رالي إلى هذا أنه يضمن للتاج خمس هذه الكنوز، ولا يطلب نظير ذلك أية معونة من مال أو سفن، وعندئذ طلب منه أن يتجهز للقيام بهذه الرحلة.

وفي مارس ١٦١٧ أبحر السير رالي إلى ألدورادو في أسطول حسن التجهيز يتألف من أربع عشرة سفينة، كما ضمن ايرل أرندل وبمبروك عودته إلى إنجلترا. على أن الأقدار تحالفت على رالي منذ البداية. ذلك أن جندومار سفير أسبانيا في هوايت هول كان قد علم بنبأ هذه المغامرة فحذر أسبانيا منها. ووقفت السفن الأسبانية في طريق السير رالي الذي كان قد وعد بأن يتحاشى الاشتباك في قتال مع أساطيل فيليب. على أن القتال نشب بين الأسبان ورالي، وأريقت دماء كثيرة

بالقرب من مدينة "مانوا" التي كان الأسبان يعدونها مفتاح البلاد التي صحت نية رالي على دخولها. وهلك في هذا القتال حاكم هذه المدينة الذي كان أخا لجندومار، كما هلك فيه الابن الأكبر لرالي.

وجن جنون وولتر لمقتل ولده، ودب الارتباك في صفوف رجال الحملة، وانتحر كيمس الموكل بها، وانتقض الجنود على رالي ورحل أخلص قواده هوايتني إلى انجلترا، وتبعته ست سفن من سفن الحملة البالغة اثنتي عشرة سفينة. وأيقن وولتر بأنه لابد ملاق الموت في إنجلترا، ذلك أنه كان يعلم حق العلم شدة كراهية أسبانيا له وعظم سلطانها على فيليب الذي كان يطمع آنئذ في تزويج ولي عهده من أميرة أسبانية. ولم تقف المسألة عند هذا الحد، بل أن جندومار طالب بكل ما أوتى من بلاغة وفصاحة بالثأر لأخيه.

ومن هنا تفهم السر في أن رالي ابتهج عندما نزل إلى البر فوجد قريباً من أقربائه ينتظر عودته. فقد كان في حاجة إلى معونته وإرشاده في هذه الساعات الحالكة من حياته. وقد جلس السير رالي في تلك الليلة في مكتبة منزل السير كرستوفر هير، وأخبر ابن عمه بجميع تفاصيل مغامرته الخائبة، وأعرب له عما يساوره من شكوك.

صاح وولتر قائلاً "لقد تحطمت أعصابي".

وراح ستوكلي يتخلل شعر ذقنه بأصابعه مفكراً، ولم يجد سبيلاً إلى تهدئة السير وولتر، ثم قال: "لم يكن من المتوقع أن تعود!" ومال رالي برأسه الأشيب إلى الوراء وتجلى الغيظ في عينيه اللتين لم يخب بريقهما

على توالي الأيام: "لم يكن من المتوقع! إنني لم أفعل شيئاً قط في حياتي يشتم منه أنني لا أحفل بالشرف. ومن الجلي أن الخطر يهددني هنا، وقد كان مقدور الكابتن كن جان يحول اتجاه سفينتي إلى فرنسا، وكنت خليقاً بأن أقابل فيها بالحفاوة والترحيب. ولو أنني قبلت ذلك لخيبت ظن أرندل وبمبروك اللذين ضمنا عودتي للملك جيمس. وأنا يا صاحبي ما زلت أحب الحياة على الرغم من سن الستين التي بلغتها، ولكن الشرف لا يزال أشهى عندي من الحياة".

ومع ذلك فقد كان رالي حريصاً على حياته، ومن ثم سأل ابن عمه "ترى ما الذي يضمره الملك لي؟"

"لا أدري والله ما يدور بخلد الملك من نحوك، بيد أني أستدل من الشواهد على أن قضيتك ليست ميئوساً منها إلى هذا الحد، فلديك أصدقاء كثيرون يخلصون لك ومنهم شخصي الضعيف. ولسوف نذهب إلى لندن بعد أن تنال قسطاً من الراحة، وهناك تستطيع أن تستمع إلى مشورة هؤلاء الأصدقاء".

وتشاور رالي مع الكابتن كنج، وكان رجلاً من رجال البحر مخلصاً لرالي قلباً وقالباً، ذا لحية ضاربة إلى الحمرة. قال كنج:

"لقد أدلى السير لويس ستوكلي برأيه، أليس كذلك؟ والسير لويس هو نائب أمير البحر في ديفون، ولا يستبعد قط أن يكون قد أمر بحراستك حتى لندن!"

ولم يك رالي يقدر قريبه هذا، فقد كانت العلاقات بينهما سيئة فيما مضى، لكن رالي شك فيما ذهب إليه كنج.

وقال السير لويس "لا، لم أتلق أمراً بحراستك بعد، على أنه من المحتمل أن أتلقى هذا الأمر في أية لحظة بصفتي نائب أمير البحر في ديفون، ولو فرض وحدث ذلك، فلتعتمد على صداقتي، فأنا أضع صداقتي لك في المحل الأول وواجبي في المحل الثاني".

وعندئذ أشرق وجه رالي بابتسامة عريضة، ثم شد على يد ابن عمه معرباً له عن تقديره لإخلاصه. أما الكابتن كنج فأمسك عن القول ثم زمجر وهز كتفيه.

أخذ رالي بنصيحة السير لويس وتهيأ للسفر معه إلى لندن، وقد صحبهما في هذه الرحلة خادم رالي الخاص كوترل ورجل فرنسي يدعى مانوري قدمه ستوكلي له قائلاً أنه رجل بارع في الطب استقدمه إليه ليشفيه من مرض مستعص أصابه.

وبلغ الركب برنتفورد أخيراً، وكان رالي يؤثر التمهل، لأنه كان كلما اقترب من لندن خشي المصير المظلم الذي ينتظره فيها. وأفضى بما يساوره للكابتن كنج ولكن كنج لم يبدد وساوسه، بل قال له "انك تساق سوق الأنعام إلى المجزرة، وأحجي بك أن تشخص إلى فرنسا حيث ينتظرك أصدقاء كثيرون. ولم تفلت الفرصة بعد، ويمكنك الحصول على سفينة تبحر بك إلى هذه البلاد".

ولكن السير رالي لم يستمع إلى هذه النصيحة ورد على كنج قائلاً: "لو أنني أخذت برأيك لأغرقت شرفي في البحر". ثم حدث أن أقبل على رالي في برنتفورد زائر جديد هو ده شسن كاتب سر المبعوث الفرنسي له كلرك، فاستقبله رالي أحسن استقبال. وقد عبر له هذا الفرنسي عن شدة ألمه لرؤيته إياه أسيراً يساق إلى لندن سوقاً. ولكن السير رالي ضحك من كلامه، وقال للزائر أنه تعجل في حكمه. فرد عليه ده شسن بأنه ذكر ما اتصل بعلمه وحسب. وعندئذ أردف السير رالي قائلاً أنه ليس سجيناً، وإنما هو ذاهب إلى لندن بمحض إرادته بصحبة صديقه وقريبه ستوكلي ليرفع إلى مسامع الملك ما وقع له في رحلته.

على أن ده شسن ضحك من هذا الكلام ضحكة مملوءة بالسخرية وقال: "لقد كتب دوق بكنجهام باسم مليكه إلى السفير جندومار منبئاً إياه بأنه قد قبض عليك، وأنه يضعك تحت تصرف ملك إسبانيا، فإن شاء حملت إليها لتحاكم أمام محاكمها الكاثوليكية، وإذا لم يشأ حملت إلى لندن. وقد أعد لك في الوقت نفسه مكان في برج لندن. ومع ذلك كله فأنت تزعم أنك لست سجيناً، وأنك ذاهب إلى لندن بمحض إرادتك! لا تنخدع يا سير وولتر بما قيل لك، واعلم أنك إذا ذهبت إلى لندن فأنت من الهالكين، ومن الخطر أن تثق بمن حولك" فحملق فيه السير رالي عابساً، ثم قال "هل تقصد السير ستوكلي؟ أنه لقريبي". غير أن ده شسن هز أكتافه قائلاً: "إنك تعرف أفراد أسرتك أكثر مني! ولكن قل لي: ما شأن هذا الرجل الذي يدعى مانوري والذي يسير في صحبتك؟ من أين أتى؟ وما الذي تعرفه عنه؟"

وتحير السير وولتر وقال أنه لا يعرف عنه شيئاً، ثم أردف ده شسن: "ولكني أعرف عن مانوري الشيء الكثير. أن هذا الرجل جاسوس لا يتورع عن أن يبيع أمته للشيطان. وأعرف فوق ذلك أنه تلقى من المجلس الخاص منذ عشرة أيام تفويضاً، وقد كان ذلك في لندن. ويستوي أن يكون هذا التفويض موجهاً لشخصه أو أنه قد كلف بتوصيله إلى أحد غيره. على أن هذا التفويض الصادر بالقبض عليك موجود، وهو في يد واحد من أولئك الذين يصحبونك. وهاأنذا قد أبلغتك، وأنت أعرف مني بأفراد أسرتك. ولتعلم يا سير رالي أنهم يستدرجونك إلى البرج حيث تلاقي حتفك. أما وقد بينت لك الدواء فإني أقدم لك أيضاً الدواء. ذلك أن مولاي المبعوث الفرنسي أمرني بأن أبلغك بأن سفينته فرنسية صغيرة قد أعدت لك، وهي رابضة في نهر التايمز لتقلك سالماً إلى حكام كاليه. وسوف تجد في فرنسا ما أنت أهل له من ترحيب وتشريف".

وهب السير رالي من مقعده وانفجر صائحاً:

"محال، محال. لقد وعدت بشرفي أن أعود ثانية إلى إنجلترا، وضمنني في ذلك أرندل وبمبروك، ولا أستطيع أن أتركهما يقاسيان من أجلي".

وكان ده شسن محيطاً بمجريات الأمور إحاطة تامة فقال لرالي مؤكداً: "لن يصيبهما شيء، فقد طأطأ الملك جيمس لأسبانيا رأسه خشية منها وطمعاً في أن يزوج ولي عهده من أميرة أسبانية. زاد على ذلك أن لك ياسير رالي أصدقاء كثيرين يخشى الملك بأسهم. ولو أنك أقدمت على الهرب لخلصته من الورطة التي وقع فيهِا.

وأثارت هذه الكلمات ثائرة رالي، على أنه ظل مستمسكاً بكلمة الشرف، فصرف ده شسن وحمله رسالة شكر إلى مولاه المبعوث الفرنسي. أما كنج فقد انضم لرأي ده شسن وذهب إلى أن التفويض الصادر بالقبض على رالي يحتفظ به ستوكلي نفسه.

وأرسل رالي وكنج من فورهما يطلبان السير لويس. وما أن حضر حتى جابهه رالي بما سمع، فلم يسع السير لويس إلا الاعتراف. واتهمه كنج بالنفاق والخداع، فلم يغضب لذلك، وإنما ظهر عليه الحزن العميق، وارتمى على كرسي، وأخذ رأسه بين يديه، ثم صاح قائلاً: "ما الذي أستطيع أن أفعله! لست أدري، لست أدري! لقد وصل التفويض في اللحظة التي هممنا فيها بالرحيل إلى لندن. ودار بخلدي أول الأمر أن أطالعك على جلية الأمر، ولكني خشيت أن ينشغل بالك، ولا أجد سبيلاً إلى تهدئة روعك"

فأجاب السير رالي: "ألم تقل لي أنك تضع قرابتك لي في المحل الأول وواجبك في المحل الثاني"

"نعم قلت ذلك، ولازلت مقيماً عليه، وإن كنت سأفقد وظيفة نائب أمير البحر في ديفون التي كلفتني ستمائة جنيه. وقد كنت خليقاً بألا أتردد في مساعدتك على الفرار لولا مانوري، فهو يراقبني كما يراقبك"

وعندئذ قال الكابتن كنج: "إن لهذا الفرنسي رقبة، وهذه الرقبة يمكن قطعها!"

فأجابه السير لويس قائلاً "نعم، تستطيع أن تدق عنقه ولكن الرجل يشنقون عادة إذا فعلوا ذلك". ثم أخذ لويس يبرئ نفسه بأبلغ العبارات وأقوى الحجج، فاقتنع رالي بقوله، كما أدرك في الوقت نفسه عظم الخطر الذي يتهدده. وراح يقدح زناد فكره، فانتهى إلى أن مانوري هو العقبة الوحيدة التي تقف في سبيله. على أن رالي لم يبتئس لذلك، فقد رأى بواسع خبرته أن مثل هؤلاء الوسطاء لا يقومون بالمهام الموكولة إليهم عن إيمان وعقيدة، وإنما هم يبيعون ذممهم بالأصفر الرنان.

وفي تلك الليلة استدعى رالي الجاسوس الفرنسي مانوري إلى غرفته الخاصة، وجلس قبالته على المائدة، ثم مد السير رالي قبضة يده وبسطها فجأة، فتكشفت عن عدد من الجواهر خطف بريقها بصر الفرنسي.

"قل لي يا مانوري، هل دفع لك من المال ما يوازي هذه الجواهر لتخونني؟"

امتقع وجه مانوري بعض الشيء، ثم نظر إلى عيني رالي الباسمتين الساخرتين، ثم تطلع إلى الجواهر المتلألئة التي أخذ بريقها في الازدياد تحت ضوء الشمعدان وانبعث منها أضواء كقوس قزح، وقدر قيمتها في نفسه، وكان قد أفاق من وقع المفاجأة التي فاجأه بها السير رالي، ثم قال: "لم يدفعوا لي نصف هذه القيمة!"

"إذن، من الخير لك أن تقوم بخدمتي، وسأجازيك على ذلك بهذه الجواهر!"

وعندئذ لمعت عينا الوسيط وسال لعابه وقال "وكيف السبيل إلى خدمتك؟"

فأجابه رالي "حسبي أن أقول لك أنني علمت بالفخ المنصوب لي، وأنا في حاجة إلى فسحة من الوقت لتدبير أمر هربي. وقد علمت من ابن عمي أنك بارع في تحضير العقاقير. فهل لك أن تعطيني عقاراً أتجرعه فأبدو لمن يراني أنني على شفا الموت؟"

وتمهل مانوري قليلاً، ثم قال: "أظن أنني أستطيع ذلك"

فأجابه السير رالي "إذن، أبشر بأنني سأعطيك جوهرتين من هذا الماس"

وفغر هذا الوغد اللئيم فاه عجباً، ذلك أنه لم ير في هذه الصفقة كرماً فحسب، بل رأى فيها إسرافاً.

وعندئذ دحرج السير رالي جوهرة على المائدة فوقعت في قبضة الجاسوس، ثم قال له "أما الجوهرة الثانية فسأعطيك إياها عندما يتم لنا خداع أولئك القوم"

وفي صبيحة اليوم التالي عجز رالي عن إتمام رحلته. ذلك أن كوترل ذهب إلى مولاه ليساعده على ارتداء ملابسه، فوجده يتقيأ ويترنح ترنح الثمل، فأسرع الخادم لاستدعاء السير لويس، فلما عادا ألفيا السير رالي يتلوى من الألم، وقد أربد وجهه، ونضح جبينه بالعرق.

وارتاع ستوكلي، وأمر كوترل بأن يعيد سيده إلى فراشه ويهيئ له

حماماً ساخناً. فلما حل اليوم الثاني لم يطرأ أي تحسن على صحة السير وولتر رالي، فقد التهب جلد جبينه وذراعيه وصدره، وغشيته بقع قرمزية بفعل الأصباغ التي زودها بها ذلكم الفرنسي الماكر الداهية.

رأى ستوكلي السير رالي راقداً على فراشه بلا حراك في شبه غشية وقد ظهرت عليه هذه الأعراض الغريبة، فخشي أن يكون قد أصيب بالطاعون، ففر من الغرفة، وأرسل في طلب ما تيسر من الأطباء ليفحصوا رالي ويصفوا له الدواء. وحضر ثلاثة منهم، ولكنهم خافوا من العدوى فلم يقتربوا من المريض، وأيقنوا من الأعراض البادية عليه أنه مصاب بطاعون حاد.

وتشجع طبيب منهم وجس نبض المريض الذي كان يعاني أشد الألم فيما يظهر. فتبين له ضعف دقات قلبه، ولاحظ أن يده باردة ومنتفخة، فزاد يقيناً بأن تشخيص المرض صحيح، ولم يفطن إلى أن رالي قد ربط ذراعه من أعلى بشريط ربطاً محكماً.

وذهب الأطباء إلى حال سبيلهم بعد أن وصفوا للمريض الدواء وأشاروا بما ينبغي اتخاذه من احتياطات، أما السير لويس فقد بعث من ينبئ المجلس المخصوص بهذا الخبر.

وفي عصر ذلك اليوم حضر الرجل المخلص كنج لزيارة السير رالي بعد أن سمع بأنباء مرضه المزعجة، وعجب غاية العجب إذا رأى رالي جالساً على سريره يستعرض في المرآة وجهه الذي بدا قبيحاً بشعاً تتقحمه العين، على أنه كان يبتسم ابتسامة الرضا بهيئته وطلعته، وقد لاح

في عينيه بريق الذكاء والدهاء. وما أن رأى رالي صديقه كنج حتى رحب به قائلاً: "آه يا كنج! لقد رضي النبي داود أن يتظاهر بالبله، وصبر على الناس يبصقون على لحيته لينجو من شر أعدائه. وهكذا فعل بروتس وغيره فعمدوا إلى مثل هذه الخدعة"

فصاح كنج مشدوهاً "خدعة! أهذه خدعة!"

فأجاب رالي "نعم يا كنج. إن ما ترى ليس إلا سياجاً وضعته بيني وبين أعدائي، ولا شك أنهم سيبتعدون عني ويفرون مني فراراً"

وجلس كنج على السرير بجوار رالي، ثم قال "أن خير سياج يحول بينك وبين أعدائك هو ذلك البحر الذي يفصل بين إنجلترا وفرنسا. وإني لأتوسل إليك أن تفيء إلى نصحي قبل أن تطأ أقدامك هذه الأرض الناكرة للجميل"

فقال السير رالي "كل شيء يمكن تدبيره يا كنج"

وأخذ رالي يفكر في المخاطر المحيطة به، ويتدبر ما قاله ده شسن واستقر رأيه بعد فوات الوقت على الهرب إلى فرنسا، وعهد إلى كنج بإعداد سفينة على وجه السرعة. على أنه لم يكن ثمة داع لهذه العجلة، ذلك أن الأوامر وصلت إلى برنتفورد بإحضار السجين.

كان الملك جيمس مقيماً آنئذ في سالزبوري، وقد شاءت إرادته بأن يحمل السجين إلى منزله الخاص في لندن. وأبلغ ستوكلي هذه الأوامر إلى السير رالي ونوه بما تنطوي عليه من تقدير ملكي كريم. ولكن

رالي لم ينخدع بذلك، فقد أدرك أن أخبار إصابته بالطاعون قد طيرت إلى لندن، فخشى أولو الأمر أن تنتقل العدوى إلى البرج.

واستأنف الركب المسير، ولما وصل السير رالي إلى لندن، حمل إلى منزله الخاص، ولكنه كان دائماً تحت عناية صديقه وقريبه!

وبر رالي بوعده لمانوري وأعطاه الجوهرة الثانية.

وفي صباح اليوم التالي اختفى مانوري عن الأنظار، فقد طرد جزاء له على ما أدى لرالي من خدمات. وكان ستوكلي هو الذي أخبر رالي بهذا النبأ، وعاتبه على ما بدا منه من فقدان الثقة فيه، وتدبير مثل هذه الوسيلة للهرب من وراء ظهره.

وعجب رالي لهذا القول، وتفرس في هذا الوجه النحيل المائل أمامه، ثم أخذ يتدبر كلام كنج ونصحه له بعدم الاعتماد على ستوكلي ،وتذكر ما وقع له معه من أحداث تكشف عن طبيعة ابن عمه وأساليبه. فبدأ يشعر بدهائه ونفاقه. ولكنه حكم العقل. وعمد إلى اصطناع الحيلة. ذلك أنه رأى أن السير لويس رجل محب للمال، ومن ثم فسدت أخلاقه. وإذا صح ما توقعه وكان لويس قد بلغ من السفالة والدناءة حداً جعله يرضي بخيانته وبيع ابن عمه بالمال فلماذا لا يشتري هو ذمته ويحمله على خيانة أولئك الذين دفعوه إلى خيانته؟

"لا، لا يا سير لويس. إن ما حدث لم يحملني على الشك فيك أيها الصديق العزيز، ولكنني أعلم أنك موظف كبير في الحكومة تحرص

على مقتضيات الشرف والأمانة، وتقدس الواجب، ولذلك خشيت أن أورطك في أمور إذا عرفتها وقعت بين أمرين لا ثالث لهما، فإما أن تخون وظيفتك أو تخونني".

وما أن سمع لويس هذه الكلمات حتى انفجر صائحاً "إنني أتعس مخلوق على ظهر الأرض، فقد أثقلت هذه المهمة الشاقة كاهلي. وأنت تعلم يا سير رالي أنني لو علمت لما بيت من أمر مع مانوري لما وقفت في سبيل هربك إلى فرنسا على الرغم مما تعرفه عن فقري وحاجتي إلى هذه الوظيفة التي تدر علي ستمائة جنيه".

فقال السير رالي "إني لأؤكد لك بأنك لن تصاب بخسارة ما، وأعدك بشرفي بأنك ستتسلم من زوجتي ألف جنيه في اليوم الذي أصل فيه سالماً إلى فرنسا أو هولندا، وهاأنذا أقدم لك هذه الحلية الصغيرة عربوناً على ذلك". ثم ناوله زمردة ثمينة محاطة بفصوص من الماس. وأدرك ستوكلي أنه لن تصيبه خسارة مادية من وراء هذه المخاطرة فأبدى استعداده الكامل لتسهيل فرار رالي بكل ما في وسعه.

وعندئذ أدرك رالي أن كنج كان مصيباً فيما قاله عن ستوكلي، وعرف أنه يتعامل مع رجل فاسد الذمة خسيس لا هم له إلا الحصول علي أكبر قدر من المال نظير ما يؤديه من خدمات. ولكنه ارتاح للأسلوب الملفوف الذي استطاع به أن يكشف عن سريرة ابن عمه، ولم يستكثر الرشوة التي اعتزم أن يقدمها له في نظير الخلاص من الموت الذي ينتظره.

وعاد ده شسن مرة أخرى وقابل رالي في بيته، وجدد له ما سبق أن

عرضه عليه من حرص مولاه على إعداد كل ما يلزم لهربه. غير أن رالي كان قد اتخذ جميع التدابير للإفلات من قبضة أعدائه، فقد حضر خادمه كوترل وأخبره بأن تابعه الضابط البحري موجود الآن في لندن. وقد أعد يختاً يربض الآن عند تالبري، وهو على تمام الأهبة ينتظر إشارة من السير رالي. وعندئذ استقر رأيه على انتهاز هذه الفرصة، ووافقه على ذلك كنج، ثم أمر خادمه كوترل بأن يخبر الضابط بإعداد العدة للإبحار فوراً، ثم اعتذر لده شسن شاكراً مولاه على ما أبداه نحوه من شعور كريم.

وأخيراً حلت تلك الأمسية من شهر يوليه التي حددها رالي للفرار، وكان قد أزال أثر الأصباغ التي زوده بها مانوري، وظهر بمظهره الطبيعي، وغطى شعره الأبيض المسترسل بقبعة أسبانية، وحجب نصف وجهه بمعطفه، ووصل إلى المكان المعروف بدرجات وابنج، وهو مكان منحوس جرى الإنجليز على أن ينفذوا عنده حكم الإعدام في القراصنة ولصوص البحر.

صحب رالي خادمه كوترل حاملاً ملابسه، والسير لويس وابنه. وقد وأظهر ستوكلي وولده شدة إخلاصهما لرالي فلم يفارقاه وقابلوه عند رأس السلم الكابتن كنج. وكان يربض تحت أقدامهم قارب على أهبة الانتظار وقد أمسك الضابط بدفته.

وحياهم كنج تحية من انزاح عن كاهله عبء ثقيل. ثم نظر ستوكلي إلى كنج نظرة تنم عن الازدراء، وقال له متشفياً: "لقد كنت تحسب أننا لن نحضر! ولكني أظن أن رأيك قد تغير الآن، وأصبحت تثق بي بعد أن تبين لك إخلاصي".

واستنكر كنج هذا الكلام، ونظر إلى ستوكلي عابساً، ثم قال له "أرجو أن تظل مقيماً على إخلاصك!"

ونزل رالي ومن معه درجات السلم، وركبوا القارب، ولم يلبث أن ابتعد بهم عن الشاطئ.

وما أن مضت لحظة حتى بدا لعيني كنج الفاحصة المتشككة قارب آخر أخذ يتحرك في النهر على مسيرة مائتي ياردة منهم. وقد لاحظ كنج أول الأمر أنه اتجه صوب جسر لندن، ثم غير وجهته فجأة يتبعهم. فبادر بلفت نظر السير رالي إلى هذا القارب، فقال السير رالي بصوت أجش: "ما هذا؟ هل خاننا أحد؟؟"

وفزع الرجال لقول رالي وعكفوا على مجاديفهم، على أن السير رالي صاح بهم: "ارجعوا من حيث أتيتم، فلن أضحي بأصدقائي في غير ما طائل. ارجعوا، ولنعد إلى المنزل ثانية" ولكن ستوكلي قال في حزم "لا، لا، لقد فات الوقت. ونحن نتفوق عليهم في المجاديف. وليس ثمة مجال للرجوع وإن صح ما تتوقعون" ثم شهر غدارته في وجوه البحارة صائحاً "إلى مجاديفكم أيها الكلاب. هيا جدفوا وإلا ألهبت ورءوسكم بالرصاص"

وخضع البحارة لهذا التهديد، وانساب القارب على صفحة الماء. على أن السير رالي ظل متمالكاً لجأشه. وتساءل عن الحكمة في متابعة السير إذا كان هناك من يتعقبهم.

فرد عليه السير ستوكلي بصوت جهير "أليس النهار طريقاً عاماً

يسلكه الناس أجمعين؟ أفئن رأيتم قارباً يسير في اتجاه قاربنا زعمتم أنه يتعقبنا ويطاردنا؟ أكلما رأيت يا سير رالي خيالاً توقفت وفوتت على نفسك فرصة بلوغ غرضك وما تصبو إليك نفسك؟ ما أتعسني إذ أجد الصديق الذي أسعى لخلاصه غارقاً في الشكوك مستسلماً للأوهام!"

وارتاح السير رالي لكلام ستوكلي بل أن الكابتن كنج نفسه رأى أنه قد تسرع في اتهامه. واستمر البحارة يجدفون في جنح الظلام مساقين بتهديد ستوكلي، ولم يعبئوا بالقارب الآخر الذي كان يقتفي أثرهم. وأخيراً وصل القارب إلى غرينتش مع انتهاء موجة الجزر، فوجدوا الماء قد بدأ في الارتفاع مما عرقل تقدمهم. فتوقفوا ثانية، وقالوا أنه لا يستطيعون بعد كل هذا الجهد أن يبلغوا جرافسند قبل أن ينبلج نور الصباح.

وبعد مداولة قصيرة أمرهم السير رالي بالرسو على الشاطئ عند بيرفليت. وعندئذ قال الضابط البحري: "نعم الرأي، ذلك أنه يمكننا أن نحصل على جياد من بيرفليت ثم نمضي إلى تاليري".

واستصوب ستوكلي هذا الرأي، إلا أن كنج عارضه قائلاً "لا جدوى من ذلك، إذ كيف يتيسر لنا الحصول على الجياد في مثل هذه الساعة لإتمام رحلتنا براً؟"

وفي هذه اللحظة شاهد السير رالي القارب الآخر يتجه نحوهم في غبشة الفجر. ثم ترامى إلى أسماعهم من فوق صفحة اليم صوت ينادي، فصاح السير رالي في صوت يفيض بالمرارة والأسى "لقد خدعنا" ثم اتجه إلى ستوكلي قائلاً "فلنعد إلى الشاطئ ثم نقصد إلى المنزل"

وأجاب ستوكلي "هذا رأي حسن، والليلة تنتهي هذه المغامرة. وإذا انكشف أمري. وظهر أنني كنت في صحبتك، فماذا يكون جزائي على تلك المعونة الصادقة التي بذلتها لك في هربك؟" قال ستوكلي هذا القول في صوت يقطر حزناً وأسى وبدا وجهه ممتقعاً أشد الامتقاع! "ألا تستطيع أن تزعم لهم أنك تظاهرت بموافقتي وذهبت معي لتستولي على أوراقي الخاصة؟"

فرد عليه ستوكلي وقد ازداد وجهه تجهماً وبرح به اليأس: "أستطيع أن أقول لهم ذلك، ولكن هل يصدقونني؟"

وما أن سمع رالي كلام ابن عمه حتى أخذ ضميره يؤنبه، وكان ألمه لما ألحقه بصديقه وقريبه أشد من خوفه على مصيره هو. وشاء له كرمه أن يعوض ستوكلي على ما أوقعه فيه من مخاطر، فلم يجد إلا تلك العملة التي كان يدخرها للملمات، فدس يده في جيبه الداخلي، وأخرج حفنة من الجواهر ألقى بها إلى ستوكلي، ثم قال: "تشجع يا سير لويس، وهيا بنا إلى المنزل وستسير الأمور على ما يرام، فلا تقاسي بعد ذلك من أجلي".

ولم يتمالك ستوكلي نفسه فعانق رالي مظهراً عظيم حبه له واستعداده لخدمته.

وأخيراً رسا القارب على الشاطئ أسفل جسر غرينش. وما لبث القارب الآخر أن داهمهم، وقفز منه رجال ليقطعوا خط الرجعة عليهم، فقال رالي: "لقد فات الأوان!" ثم تنهد من أعماق قلبه بعد أن أيقن أن المغامرة قد باءت بالخيبة وأردف:

"لتعمل يا سير لويس بما اقترحته عليك لتبرر لهم سبب وجودك معي" فأمن لويس على كلامه وقال: "ليس ثمة وسيلة أخرى. أما أنت يا كابتن كنج فلتنهج نهجي، وقل لهم أنك تبعتني لتوقع بي، وسأؤيد قولك وبذلك يسند كل منا صاحبه" فزمجر الكابتن كنج قائلاً "إن نار جهنم أحب إلي من أن أصم نفسي بالخيانة" ثم أردف "ولو كنت مخلصاً يا سير لويس لفهمت ما أرمي إليه!"

ورد عليه لويس بصوت ناعم خبيث وقد وقف إلى جانبه ابنه وواحد أو اثنان من البحارة متأهبين للعمل "أحقاً ما تقول يا كنج! وما الذي يدعوني إلى ذلك! ومع كل فإذا كان الأمر كما تقول فإني أقبض عليك يا كابتن باسم الملك متهماً إياك بالخيانة العظمى"

وتراجع كنج خطوة إلى الوراء مندهشاً، ثم أخرج غدارته، وهم بأن يفعل ما كان ينبغي عليه أن يفعله منذ أمد طويل، إلا أنهم تغلبوا عليه. وعندئذ تجلت الحقيقة لعيني رالي فاستشاط غضباً، وأزاح عباءته واستل خنجره ليغمده في صدر صديقه الحميم وقريبه العزيز، ولكن هيهات ...! فقد أطبق عليه رجال من القارب الآخر، وبرز له رجل منهم يدعى السيد وليم هربرت، وطلب منه أن يسلم سيفه.

وتملك رالي نفسه، وكظم غيظه ونظر في برود إلى قريبه ستوكلي، وكان وجه السير لويس قد أخذ يتلون كالحرباء في ضوء الفجر المشرق ليوم من أيام الصيف، وقال له: "لن تعود عليك هذه الفعال بالمجد والفخار يا سير لويس!"

وهكذا انقلب شك رالي يقيناً، فقد غرر به صديقه وقريبه وعمد إلى تجريده مما يملك قبل أن تتسلمه يد الجلاد. واشترك معه في هذه المؤامرات مانوري وخادمه الخاص كوترل.

وحوكم السير رالي بتهمة القرصنة ولكنه ظل أثناء محاكمته رابط الجأش، ودافع عن نفسه دفاعاً مجيداً وفند هذه التهمة التي رماه بها الأسبان تفنيداً فانهارت، وانحاز الرأي العام إليه، فلم تجد المحكمة بداً من التخلي عنها. ولكنها كانت تريد أن تسلم رأس رالي للملك جيمس بأية وسيلة، فرجعت إلى الأسباب التي حوكم رالي من أجلها وقضى عليه بالإعدام منذ ثلاثة عشر عاماً، وأخذت بها ثم حكمت عليه بالإعدام ثانية.

وما من أحد لقى الموت بمثل ما لقيه به رالي من بشاشه، فقد ذهب إلى ساحة الإعدام مشرق الوجه في أبهى حلله.

وودع رالي الجميع الغفير من الأصدقاء الذين تجمعوا حوله، ثم طلب أن يرى البلطة التي ستطيح برأسه، فأجيب إلى طلبه، وحملوها إليه، فأجرى أصابعه على حدها، وابتسم قائلاً "إنه عقار حاد لاذع ولكنه علاج ناجع لجميع الأدواء"

ولما أمره الجلاد بأن يلتفت صوب الشرق قال: "ما دام المرء سليم القلب، فيستوي أن يتجه إلى اليمين أو إلى اليسار"

وهكذا ذهب أعظم بطل أنجبته إنجلترا، وطويت صفحة رجل من بناة مجدها وعزها. وليس ثمة وصمة في جبين عهد جيمس أشد عاراً من

هذه الوصمة. فقد ضحى هذا الملك القذر الدنس برالي إرضاء لفيليب ملك أسبانيا.

أما ما كان من أمر السير ستوكلي فقد ضبط متلبساً بقرض النقود الذهبية لاستغلال برادتها، وكان شريكه في هذه صنيعته مانوري، وقد انقلب عليه هذا الجاسوس اللئيم وشهد عليه لينقذ حياته هو، وحكم على السير لويس بالإعدام، ولكنه اشترى حياته بكل ما يملك من مال، وعاش مفلساً مجرداً من المال والشرف.

وذاع خبر خيانته في طول البلاد وعرضها، ولقبه الناس بالخائن الأكبر.

ومما يذكر أن السير لويس قد قوبل في هويتهول بالازدراء والتحقير. وبلغت الإهانات التي لحقته منتهاها عندما ذهب ليقابل أمير البحار ليقدم له تقريراً عن أعماله، فقال الأمير: "أيها المخلوق الوضيع، كيف تجسر وأنت موضع ازدراء الناس وسخريتهم أجمعين أن تمثل في حضرتي!"

ولو أن السير لويس كانت عنده كرامة لما كان أمامه إلا سبيل واحد، ولكن الخائن الأكبر كان بريئاً منها، فحمل شكواه إلى الملك جيمس، فنظر الملك إليه شزراً وقال: "ماذا تريد مني أن أصنع! أتريد أن أشنقه! والله أن أشجار الدولة كلها لا تكفي لشنق كل من يسبونك ويسخرون منك!"

الفهرس

مقدمة ٥

نصيب الإنسان من الأرض: للكاتب الروسي/ تولستوي ٦

العصفورة الزرقاء: للكاتب البلجيكي / موريس مترلنك ٢٣

إنقاذاً للأرواح: للكاتب الإيطالي/ روبرتو براكو ٥٦

أوبرا عايدة: للأثري/ ماربيت باشا ٦٥

القديس العابث: للكاتب الألماني/ جوتفريد كيللر ٧٧

مدام بوفاري: للكاتب الفرنسي/ جوستاف فلوبير ١٠٢

الخائن الأكبر: للكاتب الإنجليزي / رفائيل سباتيشي ١٢٦